الفصل الثاني

الأزمة الفكريّة المعاصرة؛ تشخيص ومقترحات علاج:

obeikandl.com

حلقة دراسيّة لأعضاء رابطة الشباب المسلم العربيّ في الولايات المتحدة في مقر المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ في هيرندن – فرجينيا، (بتاريخ ٣ – ٥ ذي القعدة ١٤٠٨ هـ الموافق ١٧ – ١٩ يونيه ١٩٨٨ م).

منذ أواسط القرن الثامن عشر الميلاديّ، والعالم الإسلاميّ كلّه مقتلع النوافذ والأبواب في وجه الفكر الغربيّ، والمنهج الغربيّ، والثقافة الغربيّة، والعلم الغربيّ، والحضارة الغربيّة، والفنون والآداب والأذواق والتقاليد الغربيّة بدرجات متفاوتة.

فمنذ بدأ الغربيّون ينشئون كنائسهم التنصيريّة وبجوارها أو بداخلها مدارسهم التعليميّة في بيروت والقاهرة وبغداد والموصل والإسكندريّة واسطنبول وغيرها من حواضر المسلمين، والحصون الفكريّة والثقافيّة الإسلاميّة التي كانت متبقيّة لدى هذه الأمّة كانت تتهاوى واحدا بعد الآخر، والأجيال المسلمة تتعرض لعمليّة استلاب فكريّ وثقافيّ هائل، انتهت بأن أصبحت جميع معارفنا النظريّة غربيّة مائة بالمائة، أو موضوعة في قالب وإطار غربيّين، شمل ذلك الفكر والمنهج والمصدر والفلسفة المعرفيّة وموضوعاتها وغاياتها وكل مَا له علاقة بها من قريب أو بعيد. وحتى تلك العلوم التي نسميها بالشرعيّة أو الأصليّة أو التقليديّة أو أيّة تسمية أخرى لم تسلم من عمليّة الاستلاب والتغيير هذه، فأخضعت جوانب كثيرة منها للتطور الغربيّ وللوسائل الغربيّة والطرائق الغربيّة في توصيل المعرفة وتقديمها وبناء فلسفتها ومعالجة قضاياها وموضوعاتها.

وبذلك انمحت الشخصيّة الإسلاميّة بانهيار مقوماتها الأساسيّة العقليّة والنفسيّة. فالمقومات العقليّة مبنيّة عند الإنسان المسلم – إضافة إلى الموهبة والاستعداد والوراثة والقدرة والملكات الثقافيّة والمعرفة والتصورات والفكر والتأملات والخبرات والتجارب والدراسات والتحليلات والملاحظة – على منهج ومعرفة، وجدت العقليّة وصيغت وتم بناؤها.

والمقومات النفسيّة متمثلة –إضافة إلى الاستعداد والقدرة– في الفنون والآداب وما يتصل بها؛ فالفنون والآداب هِيَ التي تسهم عادة بتكوين ذلك الذوق الَّذِي نطلق عليه النفسيّة وما يتعلق بها.

ومن هنا فإن الفلاسفة لم يبعدوا كثيرا حين صنفوا القيم إلى أنواع ثلاثّة؛ «**قيم الحق**»، «**قيم الخير**»، «**قيم الجمال**». فإذا كانوا قد أبعدوا في شيء فإنما أبعدوا في ربط هذه القيم بمصادرها ووسائل الوصول إليها، فزعمهم بأن قيم الحق وقيم الخير تنبثق عن العقل وحده هُوَ ذلك الزعم الخاطئ الَّذِي نرفضه ولا نرضاه. وقيم الجمال كذلك لا نرضى أن يكون مصدرها العقل وحده أو الذوق والرغبة والهوى، وإنّما مصدر سائر القيم عندنا نحن المسلمين أمران مترابطان، يسيران جنبا إلى جنب دون أي فاصل بينهما هما: الوحي والوجود. الوحي بكل مَا أفاده من كتاب وسنّة وما اعتد به من قبلهما من مصادر أخرى وكذلك الوجود؛ فهذان المصدران منهما ومن خلالهما نتعرف على مراتب القيم، ونصنفها إلى ضروريّات وحاجيّات وتحسينات كما صنفها علماؤنا وكما هِيَ تعبيراتهم، وهما المصدران المتلازمان اللذان لا يفترقان، ويوم يفارق أي منهما الآخر فإن ذلك يعني الخراب في هذه القيم أو في مراتبها كلها.

قضيتان أساسيّتان:

وقبل أن ندخل في صميم موضوعنا، أود أن أوضح قضيتين أساسيّتين سأبني على كل منهما الكثير مما سأتعرض إليه وسأشرحه.

القضيّة الأولى؛ قضيّة الغزو الفكريّ:

قضيّة الغزو الفكريّ؛ وهم أم حقيقة؟ لقد انقسم المثقفون من أبناء أمّتنا في الإجابة عن هذا السؤال إلى قسمين متناقضين وفريقين متضادين؛ فريق ينكر هذا الغزو ويرفض الاعتراف به، ويرى مجرد الحديث عنه بهذا التصور حديث أولئك المتطرفين، الذين يريدون رفض حضارة العصر، وتجاهل آثار ثورة الاتصال والمواصلات العصريّة، التي جعلت من المتعذر على الحواجز الجغرافيّة والحدود السياسيّة والقوميّة والوقوف في وجه تأثيرات الحضارة العالميّة بكل أنواعها الفكريّة والفنية، وبالتالي فليس عند هؤلاء أي غزو أو غزاة، بل هناك فكر وثقافة وفنون، تنتقل كما ينتقل الهواء بموجاته الساخنة والباردة دون أن نتمكن من مقاومته، وأن الأفكار والثقافات قد أصبحت عند هؤلاء تتداخل كما تتداخل المياه، دون اعتبار لحدود مياه دوليّة أو إقليميّة متصورة أو مصطنعة. وهذا الموقف هُوَ موقف أصحاب هذه الحضارة وتلامذتهم والمتطبعين بفكرهم وثقافتهم، وهذا الموقف يجعل

من الصعب على أيّ أمّة من الأمم أن تتخذ من هذه الحضارة موقفا غير موقف المستسلم المتلقي، الَّذِي يتقبلها بكل مَا فيها، ويعتبرا قدرا حتميّا لا يمكن مقاومته ولا الوقوف في وجهه.

أمّا الفريق الثاني فهو فريق يعتبر هذا الغزو حقيقة مجسدة، ومعركة دائمة الاشتعال مستمرة القتال، لها جيوشها وأسلحتها وضحاياها وصفحات معاركها وأبطالها وجبناؤها، ويؤكد هذا الفريق على تمايز الأفكار والثقافات والحضارات إمكان حيازتها وحصرها في المكان وفي الزمان، وأن الأفكار والثقافات كالجيش يمكن حصرها في حدودها الإقليميّة وحدودها الدوليّة ومنعها من أن تتعدى حدودها، فإذا حصل وتجاوزت تلك الحدود كانت عدوانا وكانت غزوا سافرا، يجب مقاومته وصده والوقوف في وجهه.

أمّا موقفنا نحن الَّذِي اخترناه، ونستطيع الاستدلال عليه والبرهنة على صحته، فهو الموقف الوسط الَّذِي علمنا الإسلام إياه. فنحن ننكر تصور العالم وطنا حضاريّا واحدا بحضارة واحدة. هذا التصور هُوَ تصور ذلك الفريق الَّذِي ينكر الغزو الفكريّ كما ذكرنا، ويراه مجرد وهم من الأوهام، وليس حقيقة من الحقائق، ونرى أن هذا الموقف —حتى مع افتراض حسن النية عند أصحابه– وكرس وموظف لخدمة الانتصار التام الساحق للحضارة الغربيّة المتغلبة في عالمنا المعاصر، انتصارها بالمسخ أو التشويه لفكر وحضارات وثقافات الأمم المختلفة التي ابتلت هِيَ وشعوبها وأممها بغزو الاستعمار الغربيّ في عصرنا الحديث، ونعتبر أن هذا إنّما هُوَ طريق للتبعيّة الحضاريّة، التي لا بد أن تسبقها تبعيّة فكريّة وثقافيّة، وأن هذا الموقف لو اتخذناه أو أصبح موقف الأمّة كما كان في أوائل هذا القرن سوف يحولها إلى تابع ذليل لحضارة الغرب وفكره، فنفقد أو نستمر بالأحرى في فقدان شخصيّتنا الثقافيّة والحضاريّة، ونفقد مكانتنا لندخل في النهاية في المأزق الحضاريّ الغربيّ الَّذِي يجاهد الغرب ذاته اليوم للخروج منه وللوصول إلى سبيل للفكاك والخلاص من أسره. كما لا نقبل أيضا رأي الفريق الَّذِي يتصور العالم حضارات منعزلة وجزرا منفردة تماما مكتفية بذاتها كليّة، لأنّ التصور فضلا عن تجاهله لواقع القضايا المشتركة بين بني البشر، التي أكد الإسلام وجودها وجاءت مصادره لتنبه إليها، يصيب الأمّة التي تفرض على نفسها مثل هذا الموقف بعزلة حضاريّة هِيَ أقرب مَا تكون إلى عمليّة انتحار حضاريّ وثقافيّ وفكريّ.

هـذا التصـور –لـو فرضـنا إمكـان وقوعـه وإمكـان الأخـذ بـه– يتجاهـل ثـورة الاتصـال والمواصلات التي لم يعد في إمكان قطر من الأقطار أن يحول بينها وبين الدخول إليه، فإنه إن وقف أو أغلق النافذة دخلت مع الهواء، أو دلت مع الأثير، أو دخلت مع أي شيء من الأشياء. نحن نختار لأنفسنا بين هذين الموقفين موقفا وسطا عدلا نبصر فيه مَا هُوَ عام ومشترك في الفكر الإنسانيّ مما ينسجم مع العقيدة والشريعة، فندعو أمّتنا إلى طلبه وتحصيله واستلهامه وتمثيله؛ لتقوى به ذاتيّتها، وتزدهر به شخصيّتها، ويشتد به عودها، مع إدراك سمات حضاراتنا ومميزاتها، ومصادر فكرنا وثقافتنا وفنونا وآدابنا ونجتهد في وضع الوسائل والمناهج التي تجعلنا نتمثل هذه الأمور وفقا لمنهجنا لا لمنهجها أو منهج أصحابها وما وضعوه.

القضيّة الثانية:

وهي القضيّة التي تحدّد الأدوار التي مر بها تعاملنا مع الفكر والثقافة والمعرفة الغربيّة منذ أن بدأ اتصالنا بها –ربما في عهد سليم الثاني أو بعده بقليل– قد مر بمراحل ثلاثّة هي:

المرحلة الأولى:

ويمكن أن نسميها مرحلة الصدمة الأولى والانبهار الشديد؛ وهي المرحلة التي زلزل فيها المسلمون زلزالا شديدا عن مواقعهم الفكريّة والثقافيّة، وفقدوا ثقتهم بفكرهم الإسلاميّ وثقافتهم الموروثة، وخيل لهم أن الفكر والثقافة الإسلاميّة لا يمكن أن يبنيا حضارة أو يحققا تقدما أو إنماء، ووضع الإسلام كلّه في قفص الاتهام، وأصبح الإنسان المسلم منهزما من الداخل نفسيّا مهيأ تماما لاستقبل البديل الغربيّ في الفكر والثقافة والعلم والمعرفة والفنون والآداب دون أي تحفظ. وفي هذا الدور بدأت البعثات من أبناء المسلمين تجوب الجامعات والمعاهد الغربيّة بحثا عن المعرفة والفكر والثقافة دون تمييز أو انتقاء أو احتياط أو تحفظ، وبدأت المؤسّسات العلميّة في بلداننا تؤسس وتبنى وتنشأ على النمط الغربيّ في الفلسفة والفكر والثقافة والمكان والمناهج والبرامج والوسائل وسائر مَا يتعلق بها، وكانت جرأة بالغة في تلك الفترة أن يقول المسلم الملتزم أن الإسلام لا ينافي العلم ولا يناقض الحضارة. ومن هنا فإن كثيرا من المعاصرين ينظرون بعين النقد وأحيانا بعين الرفض إلى أمثال الشيخ مُحَمَّد عبده، والسيد جمال الدين الأفغاني، ولكن الناظر على موقف هذين الرجلين بعين الحقيقة المقدرة لتلك الفترة يستطيع أن يدرك أن مَا قام به الرجلان في تلك الفترة كان هُوَ الممكن

وهو المستطاع بالنسبة لظروف تلك المرحلة. كان قصارى جهد المسلمين الملتزمين وجهاد علمائهم في تلك الفترة أن يؤكدوا بشتى المؤكدات الخطابيّة، مستنصرين ببقايا الإيمان الكامن في القلوب، وفضلة الثقة العالية في النفوس، على أن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، ويصرون على تأكيد هذه العموميّة من أجل أن يدفعوا المسلمين إلى شيء من التوازن أو الوقوف على الأقدام في وجه ذلك الغزو الساحق الماحق.

المرحلة الثانية:

وهي المرحلة التي بدأت فيها النفوس تستقر إلى حد مَا وتجتاز فترة الانبهار، وفيها بدأ المسلمون يلتقطون أنفسهم ويراجعون مواقفهم، ويتعاملون مع المقولات الغربيّة المختلفة، ويراجعون النظريّات والمدارس والمقولات مراجعة الدارس المستفيد، فشاعت أفكار الموازنة والمقارنة والبحث عن وجوه الاتقاء بين الإسلام والثقافة الغربيّة، بدوافع مختلفة، بعضها لتحقيق أهداف غربيّة فيما يمكن أن نسميه بتطبيع العلاقات بين المسلم والفكر والثقافة الغربيّين، والقضاء على سائر جيوب المقاومة في العقول والقلوب المسلمة، وبعضها لدوافع إسلاميّة ذاتيّة مخلصة، كانت تستهدف فتح النوافذ، أو إيجاد ثغرات في الجدار الفكريّ والثقافيّ والغربيّ الَّذِي أحاط بالمسلمين؛ لكي ينفذ الإسلام من تلك الثغرات اليسيرة الضيقة من جديد إلى العقول والقلوب المسلمة، فبدأنا نقرأ في تلك الفترة عن ديمقراطيّة الإسلام، واشتراكيّة الإسلام، والعدل الاجتماعيّ في الإسلام، والسلام في الإسلام، وحقوق العمال في الإسلام، وحقوق الإنسان في الإسلام، إلى غير ذلك من أمور تدل على أنّنا اجتزنا مرحلة الانبهار ودخلنا مرحلة المواجهة، وكانت غاية تلك المرحلة أن تقرر أن لدينا مثل مَا لدى الغرب، فقد يمتاز عنا الغرب بشيء لكن لدينا مثله بشكل من الأشكال.

المرحلة الثالثة:

وهي المرحلة التي نعيشها أو نعيش جزءا منها، مرحلة سميت بمرحلة الصحوة الإسلاميّة، ونسميها مرحلة الوعي بالذات أو اكتشاف الذات.

هذه المرحلة هِيَ المرحلة التي بدأنا فيها نؤكد على مزايا الإسلام وخصائصه وتفوقه فكرا وثقافة وعقيدة ونظاما ومنهاج حياة وأخلاقا وقيما ومعايير؛ بل بدأنا نكتشف في هذه المرحلة بعض الثغرات الكبرى في ثقافة الغرب نفسه وفي فكره، اكتشفنا فيها أنّنا كنا مخدوعين، نعيش حالة غزو

وحالة استلاب ثقافيّ وفكريّ وفقدان توازن، إضافة إلى الاستلاب السياسيّ والاقتصاديّ، وبدأ الكثيرون منا يدركون أن الأطر الفكريّة الغربيّة والنظريّات الغربيّة والمناهج والثقافة الغربيّة بكل مدارسها لم تعد صالحة لبناء نهضتنا وحضارتنا وإقامة الكيان العمرانيّ المشترك لأمّتنا، وبدأ في هذه المرحلة يشيع مصطلح الصحوة الإسلاميّة، وطرحت كثير من القضايا المعقدة، ووضع المفكّرون المسلمون أمام الاختبار العسير والتحدي الخطير، فأما أن يثبتوا صحة وسلامة شعاراتهم ونداءاتهم بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، وأن الإسلام قادر على استئناف حياة إسلاميّة وبناء حضارة وإقامة تقدم وإيجاد دولة وتقدم بدائل، وإما أن ينسحبوا من الميدان ويتركوه لغيرهم مرة أخرى؛ لتبدأ الأمّة مرحلة من التيه جديدة.

ويمكن بيان هذه المراحل الثلاث في التعامل مع الفكر والحضارة الغربيّة في الشكل التالي.

حاجتنا إلى الفكر:

من المهم جدا ملاحظة هذه المراحل لكي لا نخلط بين الأولويّات، لم نعد نحن الآن في مرحلة المناداة بأن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فإن تلك المرحلة قد انتهت وينبغي تجاوزها بكل شعاراتها. لم نعد كذلك في حاجة إلى إيجاد موازنات بين الإسلام وغيره، لأنّ هذه المرحلة أيضا قد انتهت وتجاوزناها. نحن الآن في مرحلة أخرى؛ هذه المرحلة هِيَ كما قلنا هِيَ مرحلة تحد كامل، إما أن نكون قادرين على إقناع الأمّة بأننا البديل الحضاريّ المناسب، وأننا الأقدر على تقديم الفكر السليم والثقافة الصحيحة والحضارة القويمة والعمران الأكيد وأنّنا نحن المؤهلون لأنّ نجتاز بالأمّة حاجز التخلف، ونحقق لها أهدافها في الإنماء والبناء وفي العمران وفي احتلال موقعها تحت الشمس، وإما أن يثبت عجزنا، لأنّ العالم قد اجتاز المرحلتين السابقتين تماما، ويجب أن ندرك نحن أنّنا قد اجتزناها.

الوسيلة الوحيدة لإثبات صحة مَا ندعو إليه هِيَ في تقديم البديل الإسلاميّ لكل مَا قدمه الغرب وتجربة هذا البديل ونجاحه، فهناك فكر سياسيّ غربيّ وفكر اقتصاديّ وفكر اجتماعيّ وفكر تشريعيّ وفكر تربويّ وإنسانيّ، وفكر فلسفيّ ومنهجيّ وثقافيّ، وعلى أساس من ذلك الفكر كلّه قامت هذه الحضارة الغربيّة المعاصرة في سائر جوانبها، فنجحت في بعض هذه الجوانب نجاحا بالغًا، وتراجعت وفشلت في جوانب أخرى فشلا ذريعًا. والتحدي الإسلاميّ لا يتم إلا بتقديم البدائل

الناجحة أو المتفوقة في كل جانب؛ الفكر والثقافة والمعرفة والحضارة، وإثبات ذلك النجاح والتفوق في الحضارة التي تقوم عليه وتنبثق عنه، من خلال مؤسّسات ونظم ووسائل تجسد ذلك الفكر، وتقوم تلك الحضارة. وآنذاك فقط يمكن أن نقول بملء الفم، ها نحن قد عدنا من جديد، وأن صحوتنا إنّما هِيَ صحوة حقيقية لا تعقبها كبوة.

من الممكن أن يوجد في أيّ بلد من البلدان قانون للأحوال الشخصيّة مستمد من الفقه الإسلاميّ، ويمكن أن يضاف إليه قانون للعقوبات يطبق الحدود وفقا للفقه الإسلاميّ. ليست المشكلة في هذا الأمر، كما يمكن أن يكون هناك قوانين أخرى؛ تجاريّة أو مدنيّة ،. أيضا ليست هذا المشكلة، فالدولة العثمانيّة حينما انهارت وسقطت الخلافة (في ٢٧ رجب ١٣٤٢ هـ /٢ مارس سنة ١٩٢٤م)، كانت كل هذه القوانين موجودة في الدولة؛ ولكن لم تكن تحقق لها الحماية. ولا تزال هذه القوانين تطبق في بعض الأماكن أو في بعض البلدان الإسلاميّة، ولكنها لم تحقق نصرا ولم تقم حضارة. القانون يمكن أن ينظم واقعا، ولكن أن يوجد أو ينشئ حضارة فهذا أمرا آخر. وكذلك ممكن أن يوجد موظفون مدنيّون من منصب رئيس دولة إلى منصب شرطي أو فراش بسيط. يمكن أن نجد رئيس دولة متدينا، ويمكن أن نجد مديرا عاما ووكيلا وكذا... كل هذا يمكن وجوده، ولكن لا يعني أن الحياة الإسلاميّة قد استأنفت، وأن الحضارة الإسلاميّة قد بدأت تنشأ أو تنهض. كل ذلك لا يمكن أن يعتبر استئنافا لحياة إسلاميّة مَا لم تكن السيادة في العقول للفكر الإسلاميّ، وما لم تستعد الأمّة شخصيّتها الثقافيّة المميزة وعقليّتها الإسلاميّة ونفسيّتها الإسلاميّة المطمئنة، فلا أمل في نهضة حقيقة أو بناء حضاريّ.

إن عالمنا الإسلاميّ اليوم تتقاسم عقول أبنائه المذاهب الفكريّة الغربيّة كالعقلانيّة والوضعيّة والطبيعيّة والماديّة، والماديّة الجدليّة، والماديّ المطلقة ونحوها. كما تتوزع نظم دياره المذاهب والنظم السياسيّة القوميّة والاشتراكيّة والديمقراطيّة. وتشترك في الهيمنة على ثقافة بنيه ومناهجهم الثقافة الغربيّة بمدارسها المختلفة وجوانبها المتنوّعة. وحالة التمزق والصراع الدائم والتفكك الاجتماعيّ –التي تعيشها معظم ديار الإسلام– حالة لا يمكن أن تتوقف أو تنتهي، إلا بعد أن يتم تقديم البديل الفكريّ والثقافيّ والإسلاميّ، وتبدأ الأجيال المسلمة تتربى على هذا الفكر وتصاغ عقليّتها وفقا لهذه الثقافة ومناهجها وفنونها. ومن هنا قضيتنا الأساسيّة المحوريّة في هذه الدراسة قضايا الفكر، وقضايا

المنهج، وقضايا المعرفة والثقافة، وقضايا البديل الحضاريّ. نحن نعلم أن للأمّة قضايا أخرى وهموما إضافيّة ومشكلات عاجلة يومية لها خطورتها وأهمتها، ولكننا نزعم أن نقطة البداية وحجر الزاوية في طريق الإصلاح ينبغي أن تكون مما ذكرنا، وبمعالجة المحاور التي ذكرناها. فما قضيّة الفكر؟ أو مَا الفكر؟ وما أهم قضاياه؟ وما الَّذِي اعتراه حتى أصبح في حاجة إلى إصلاح مناهجه؟ وكيف يمكن أن يتم هذا الإصلاح؟

معنى الفكر وحقيقته:

هنا سأنحو منحى «**أكاديميا**» إلى حد ما، فالأمر لم يعد أمر خطابة وإنارة مشاعر، وإنّما لا بد أن يقوم على دراسة وتحقيق وعمل متقن دقيق عن كل مَا ذكرناه. لا أوضاع أمّتنا تحتمل عمليّات إذكاء مشاعر ومخاطبة العواطف، ولا أوضعنا نحن، ولا أوضاع شبابنا المثقف طليعة أبناء هذه الأمة. نحن قد تعلمنا في دراستنا الشرعيّة أن أي شيء لا بد من تعريفه لغة، ثم تعريفه اصطلاحا؛ لكي يتصوره الإنسان. كلمة الفكر يطلقها اليوم كثيرون ولكنها تحتاج على تحديد مفهومها وبيان حقيقتها ليمكن تصورها بشكل سليم.

المعنى اللغويّ: اللغويّون يقولون: فكر يفكر تفكيرا بالتشديد؛ ويقولون: إنّه يمكن أن يأتي من باب «**ضرب**» «**فكر – يفكر – فكرا أو فكرا على وزن ضرب – يضرب – ضربا**». ويقولون: يجوز أن يقال: «**أفكرته**»؛ أي: «**جعلته يفكر**»؛ أي: «**يتذكر**» مثل «**ذكرته**» ويقول بعضهم: «**الفكر**» مقلوب عن «**الفرك**»؛ لكن الفرك هُوَ للأمور الحسيّة كما تفرك القمح أو الذرة ونحوها؛ والفكر للأمور المعنويّة، ولهم كلام طويل عريض في قضيّة تحليل الجذر، وبيان الجمع والتثنية ومتى يلحقه التعريف، ومتى لا يلحقه؛ لا نطيل فيه. لكننا فقط نريد أن نبين أن هذه الكلمة هِيَ جزء من البناء اللغويّ، والنسيج اللغويّ للغتنا له جذوره وله معناه.

ونلجأ مباشرة بعد اللغة إلى مصدرنا الأساسيّ الَّذِي لا ينبغي أن نزيغ عنه وهو كتاب الله – تبارك وتعالى؛ وفي كتاب الله –تبارك وتعالى– لم ترد مادة فكر «**ف: ك: ر**» بصيغة الاسم؛ أي: لا نجد مثلا في القرآن الكريم فكر كاسم أو مصدر ولا نجدها معرفة بلام ولا منكرة، فقد وردت في القرآن الكريم في عشرين موضعا بصيغة الماضي –فعل ماضي – وبصيغة المضارع. **[إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ]** (المدثر:١٨) «**لعلهم يتفكرون**» «**أفلا يتفكرون**» في صيغة المخاطب وفي صيغة الغائب. والفعل في

لغتنا العربيّة تعريفه بأنه مَا دل على حدث وذات، يعني حينما نقول «**ضرب**» فضرب تدل على الحدث نفسه وهو الضرب، وتدل على أن هناك إنسانا ضاربا. فحينما نقول فكر أو يفكر أو تفكر فهي كلمة تدل على حدث هُوَ الفكر، وتدل على الذات الفاعلة لهذا الحدث التي نسميها بالمفكّر. فحينما تستخدم في القرآن الكريم بهذه الطريقة فكأن الله –سبحانه وتعالى– يريد أن ينبهنا إلى أن هذا العمل الذهنيّ الَّذِي يسمى بالفكر إنّما هُوَ عمل مرتبط بذات، فلا يمكن أن يتجرد الفكر عن المفكّر. فكلما وجد فكر وجد مفكّر، وأن الفكر لا ينبغي أن يكون شيئا فيما لا طائل تحته وفيما لا عمل أو حركة في هذا الكون تبنى عليه.

نتجاوز هذا لنعود إليه بعد قليل لنقرر أن هذا الَّذِي نسميه بالفكر هُوَ خاصّة من خواص الإنسان، لا يشترك معه فيه أي مخلوق آخر، ولا يطلق الفكر إلا على العمليّات الذهنيّة التي يقوم بها الإنسان، أمّا الحيوانات فحتى المظاهر التي تشبه عمليّة الفكر لدى الإنسان لا تسمى بفكر، وإنّما تسمى بالتوجيه الغريزيّ. حتى المناطقة الأقدمون يفسرون الإنسان فيعرفونه بأنه حيوان ناطق؛ أي: مفكّر. أمّا بقيّة الحيوانات فلها التوجيه الغريزيّ ونحوه، وهو الَّذِي يقابل الفكر والذهن والقوى العاقلة عندها.

وقد اهتم علماؤنا بتفسير الفكر وتعريفه وبيان حقيقته ومعناه وإن أهمله المعاصرون إلى حدٍ كبير. للكلام عن حقيقة الفكر وبيان مَا يدخل تحته وجدت أن كثيرا من علمائنا الأقدمين من القرن الثالث الهجري الَّذِي بدأت علومنا تتبلور فيه، والقرن الرابع الَّذِي ازدهر فيه تدوين هذه العلوم، وجدت كثيرين منهم قد تكلموا في هذا الأمر وتناولوه بالشرح والبيان، وعرفوا هذا الاصطلاح وكتبوا فيه كثيرا. فبعض المراجع وجدت فيه مَا يقرب من مائة صفحة تتحدث عن الفكر ومواصفاته وشروطه. وبعض المصادر وجدت فيها أكثر من هذا، ولكن بطبيعة الحال طبيعة مصادرنا مختلفة، وكتبنا الدراسيّة لها وضعها وطريقتها في التناول، فتجد بيان وتعريف هذا المصطلح أحيانا في كتب التصوف، وتجده في كتب التصوف وتجده في كتب اللغة وتجده في كتب الفلسفة، وفي كتب علم الكلام، وفي كتب الأصوليّين. فعند كل هؤلاء وفي موسوعات هذه العلوم نجد كلاما كثيرا عن الفكر ومرادفاته وشروطه وتنوّعه، لا أريد أن أطيل فيها، ولا أريد أن أدخل في تفاصيلها، ولكني استطيع أن أقول: إنّني خرجت من خلال دراستي لما ورد في هذه المصادر بأن الفكر اسم لعمليّة تردد القوى

العاقلة المفكّرة في الإنسان، سواء أكان قلبا أو روحا أو ذهنا بالنظر والتدبّر، لطلب المعاني المجهولة من الأمور المعلومة، أو الوصول إلى الأحكام، أو النسب بين الأشياء. ويزيد في إيضاح هذا المعنى مَا أورده الأمام أَبُو حامد الغزالي حيث قال: «**اعلم أن الفكر هُوَ إحضار معرفتين في القلب ليستخرج منهما معرفة ثالثة**»، كأنه يريد أن يقول: إنّه تهيئة مقدمتين ليصل من المقدمتين إلى النتيجة، كأن أقول «**وأقيموا الصلاة**» إذا أردت أن أحولها إلى قضيّة فكريّة؛ أقول: أقيموا الصلاة أمر وهذه مقدّمة، فعل «**أقيموا**» في اللغة فعل أمر، وكل أمر من الخالق سبحانه وتعالى لعباده فهو واجب، المقدّمة الأولى دليلها لغويّ وهو فعل الأمر المقدّمة الثانية دليلها أصوليّ والأمر واجب التنفيذ، فالصلاة واجبة؛ هذا الشيء الثالث، حينما لا يعرف الإنسان مثلا حكم الصلاة؛ أهي واجبة أو سنّة؟ أقول: صلاة الضحى صلاها رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – وتركها، هذه المقدّمة دليلها تاريخيّ تتبع أفعال رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – وكل مَا فعله وتركه فإنما هُوَ من قبيل السنّة لا الفرض، فصلاة الضحى سنّة، توصلت إذًا إلى القضيّة الثالثة. فدائما تحضر مقدمتين أو أكثر في بعض المعارف لتتوصل من المقدمات المعلومات لديك إلى مَا يسمى بالنتيجة أو المقدّمة الثالثة. هذا العمل هُوَ فكر. القرآن الكريم كما قلت ربط الفكر بالحركة لينبها إلى أنّه غير مرغوب فيه ذلك الفكر الكسول المتعطل، فالفكر من أجل الفكر، لا يؤدّي إلى نفع دنيويّ أو أخرويّ ولا محل له، لأنه لا بد أن نفكر من أجل أن نصل إلى شيء إما في أمور دنيانا أو في أمور أخرانا، أمّا الفكر من أجل الفكر، أمّا الفكر بمعنى الهيمان وراء أخيلة، وراء شيء غير مبنيّ على مقومات حقيقة لها مستندها ولها دليلها، فهو نوع من التخيل وليس بتفكير. وللأقدمين كلام طويل جدا للتفريق بين الفكر وبين التخيل وبين التدبّر وبين التذكر وهذه القضايا لا نود أن نتناولها هنا بإطناب.

منهجيّة الفكر:

أيًّا كان الأمر، إذا أدركنا معنى الفكر وحقيقته فإن أمامنا قضيتين:

القضيّة الأولى: هِيَ أن نحدّد معالم ومنهج فكرنا الإسلاميّ. فلا بد لنا أن نقدم منهجنا في التفكير لأنفسنا وللناس الآخرين. مميزين في ذلك بين قضايا الفكر وقضايا الثقافة والمعرفة ومبينين وضع كل منهما. هذا جانب من جوانب الأمر.

جانب ثان؛ وهو أن لفكرنا الإسلاميّ في تاريخنا قضايا معقدة ومعضلات لا تزال قائمة، لا بد لنا من معالجتها. فيما يتعلق بهذا الجانب إذا اتفقنا على أن الفكر هُوَ اسم لتلك العمليّة الذهنيّة أو اسم لتردد القوة العاقلة المفكّرة في الإسلام قلبًا كانت أو روحًا أو ذهنًا بالنظر والتدبّر لطلب المعاني المجهولة أو الأحكام أو النسب بين الأشياء، إذا اتفقنا على هذا المعنى فإن لهذا الأمر منهجا. الإنسان الغربيّ ينطلق في فكره من الفروض، يفرض لكل شيء الفرض الأول فالثاني فالثالث فالرابع ويتأمل ويتفكر ويتدبّر في هذا الفروض، ويخضعها لعمليّة الحذف والإضافة لكي يصل إلى الاستنتاج. بالنسبة لي كإنسان مسلم لبدي مصدران:

المصدر الأول: هُوَ الوحي؛ والوحي يعني: الكتاب والسنّة. فهناك قضايا عليّ أن أحدّدها هِيَ التي أنطلق بالتفكير فيها من منطلق الكتاب والسنّة، وهناك قضايا أخرى أنطلق فيها من منطلق الوجود. الكتاب والسنّة أو الوحي إنّما جاء لإعطائنا التصور الصحيح عن الكون والحياة والإنسان لبناء العقيدة السليمة، وإيجاد الإنسان الصالح، فتناول قضايا الغيب. وأجاب عن كل التساؤلات التي يمكن أن تعرض للإنسان في هذه القضايا وأشبع فيها الغليل، وعالج العقد في هذه الأمور التي لم تستطيع الفلسفة لدى الأمم الأخرى أن تعالجها، وتناول قضايا محدّدة يمكن أن تتضارب فيها شهوات الإنسان ورغباته بحيث لا تستطيع أن تصل فيها إلى الحل السليم. قضايا مثل قضيّة المرأة التي ضلت فيه الأمم؛ لأنّ القضيّة فيها تعقيد، تختلط فيها الرغبة والشهوة والمحبة والكراهة والتصورات، فلا بد فيها من حل قضايا المواريث قضايا العبادات، الإنسان ضل فيها قديمًا، كان يصل إلى حافة التوحيد ثم يدخل على هذا التوحيد الشوائب. ولقد عرف الإنسان القديم كثيرا من المحاولات في هذا الأمر، يصل إلى حافة التدين ثم ينحسر، يصل إلى التوحيد ثم الشرك. هذه الأمور كلها يمكن أن تضطرب، فعالجها الوحي وأعطانا فيها الحلول السليمة. قضايا العبادات، سنن الكون العامّة، القواعد الأساسيّة في السلوك، في الأخلاق، كل هذه الأمور قد تناولها الوحي. إذن أنا لا أنطلق في هذه القضايا من فروض، وإنّما أنطلق من الوحي، فأبحث عن أيّة قضيّة في الكتاب والسنّة، وفيما يستند على القرآن الكريم والسنة النبويّة المطهرة من إجماع وقياس، فإن وجدت الأمر فلا أسلك سبيل الفرض العقليّ كما يفعل الغربيّ، وأنطلق من الفرض الأول فالثاني فالثالث فالرابع فالخامس وأبدأ عمليّة السبر والتقويم والحذف والإضافة لأصل إلى التصور في هذا الأمر، وإنّما أصل إلى التصور

من خلال معرفة النص ومراده، وفي معرفة النص ومراده منهج خاص كامل، هُوَ المنهج الَّذِي نسميه منهج الأصول أو الأصوليّين، وهو مَا نعبر عنه بعلم «**أصول الفقه**»، فطريقة التعامل مع النص واستنباط علاقة النص بالواقع، ومناهج الوصول إلى فهم النص وتطبيقه، هذه كلها مبحوثة في علم واحد يعتبر هُوَ علم المنهجيّة بالنسبة لنا نحن المسلمين، ألا وهو علم «**أصول الفقه**».

هناك جوانب أخرى وقضايا حياتيّة مختلفة لم تتناولها النصوص ولم تكن قضيّة من قضايا النصوص المباشرة، لأنّ النصوص قد أعطت الإطار العام لها، وطالبتني بصفتي إنسان عاقل مكلفا أن استخدم عقليّ وجهدي واجتهادي في الوصول إلى هذا الأمر. هذا انطلق فيه من مراتب الحدس المعروفة لدى المفكّرين، ومراتب الحدس ثلاثّة؛ حدس حسيّ، وحدس ذهنيّ، وحدس فكريّ، يعني على سبيل المثال لو نظرنا إلى شيء بهيج، فالنظرة الأولى قد تفترض أن هذا الشيء الَّذِي رأيته عن بعد شجرة، هذا الحدس الأول الَّذِي قام في الذهن، تقترب منه أو يقترب منك فترى أنّه يمكن أن يكون جملا، تقترب منه أكثر أو يقترب منك فتقول: لا؛ إنّه حصان، وهكذا تستمر إلى أن تتأكد منه بأن تصل إليه وتراه بشكل كامل فتقول: إنّ هذا إنسان أو شجرة ويتحقق عندك الشكل المعنى، هنا نعتمد على الكون وعلى الوجود وعلى السنن الكونيّة وعلى قدراتنا التي زودنا الله -تبارك وتعالى- بها، على عقولنا وما منحنا الله -تبارك وتعالى- جل شأنه من وسائل، لكي نختبر هذا الوجود، ولكي نكتشف هذه العلاقات، لكي نسخر هذا الوجود من أجل البناء والعمران من أجل تحقيق الغاية التي خلقنا الله سبحانه وتعالى من أجلها: **[وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ]** (إبراهيم:٣٣)، **[وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ]** (إبراهيم:٣٢)، **[وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ]** (إبراهيم:٣٤)، هذه الأمور نحن نستخدم فيها قواعد الشرع العامّة وتوجيهاته والغايات والمقاصد، ونستخدم فيها هذا المنهج الَّذِي هُوَ منهج الحس والتجربة والعقل في كل مَا يتعلق باكتشاف العلاقات وتنظيمها، وتنظيم وسائل الاستفادة منها، ثم إخضاعها لحاكميّة الله سبحانه وتعالى وهي الحاكميّة المطلقة.

مفهوم المعرفة

سبق القول أن مصادر معرفتنا هِيَ الوحي والوجود، أمّا مصادر المعرفة المعاصرة فهي الوجود وحده، ولذلك فتعريف المعرفة لدى علماء التربية والمعرفة اليوم هُوَ التعريف المعترف به لدى

«**اليونسكو**» وسائر المؤسّسات الثقافيّة «**المعرفة؛ كل معلوم خضع للحس والتجربة**» فكل مَا يتعلق بالله -تبارك وتعالى- وبالآخرة وبالأنبياء كل هذا يعتبر ليس من العلم، ولذلك حين يتحدثون عن هذه الأمور يلحقونها بالخرافة، يلحقونها بالأساطير، يلحقونها بأيّ شيء، لكن لا يعتبرونها معلومة وحين يطلب مني كإنسان مسلم أن أبين مَا هُوَ البديل عندي لهذا التعريف أستطيع أن أقول: المعرفة كل معلوم دل عليه الوحي والحس والتجربة؛ تعريف إسلاميّ، ولا يمكن أن أقبل هذا التعريف الَّذِي تسير كل المدارس عليه الآن؛ وهو تعريف ملحد: «**كل معلوم خضع للحس والتجربة**» نحن لا نستطيع أن نتقبل هذا، وإن كانت كل أجهزة تربيتنا وتعليمنا ومدارسنا وجامعتنا تأخذ بهذا التعريف وتعتبره هُوَ التعريف المقبول للمعرفة، لكننا نستطيع أن نقول هذا مرفوض بالنسبة لنا، إنّما نقبل كل معلوم دل عليه الوحي ليكون علما؛ لأنّ الوحي جاءني بطريق علميّ ألا وهو الإعجاز والتحدي، فالقرآن الكريم تحدى الناس أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة وعجزوا. وبالتالي فالمعرفة عندنا نحن المسلمين كل معلوم دل عليه الوحي والحس والتجربة، والعقل يدخل في الحس كذلك.

بعض المعضلات الفكريّة:

أمّا الجانب الثاني من قضايا الفكر التي تهمنا فهي تلك المعضلات التاريخيّة الكثيرة التي كان لها أسوأ الآثار في بناء الفرد المسلم عقليّا وثقافيّا ونفسيّا وتربويّا، والتي أحدثت أسوأ الآثار كذلك في كيان الأمّة الإسلاميّة وفرقتها وجعلتها شيعا وأحزابا وطوائف ومذاهب شتى. هذه القضايا كثيرة لا بد لها من معالجة، ولا بد لها من حلول، ثم لا بد لها من إعادة طرح وتقديم للخروج من المأزق الفكريّ أو الأزمة الفكريّة التي طالما أفسدت على الأمّة محاولاتها في التقدم والحضارة.

١ – معضلة العقل والنقل:

في مقدّمة المعضلات الفكريّة القديمة والحديثة التي فرقت كلمة الأمّة وشتت شملها قضيّة الصراع المفتعل بين النص والعقل. تاريخنا لم يعرف قضيّة بهذا الاسم إلا بعد عصر الترجمة، وبعد أن أطال على المسلمين الأمد وقست منهم القلوب. على عهد رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– بل وعهد الصحابة -رضوان الله تعالى عليهم- لم يكن يعرف شيء اسمه نص وشيء اسمه عقل متمايزان يعيشان حالة الصراع وتناقض وتناف وحرب ومعركة بين الاثنين، كان النص والعقل يسيران

معًا جنبا إلى جنب خاضعين لحاكميّة الله -تبارك وتعالى- المطلقة، النص يرشد العقل ويوجهه، والعقل يتفهم النص ويستوعبه ويحسن تطبيقه وفهمه وربطه بالواقع دون أي عمليّة صراع. ولكن الآن مَا أكثر الكتابات وما أكثر الدراسات التي تتناول قضيّة النص والعقل، وهي قضيّة مفتعلة —كما قلت- كانت من نتائج الصراع المبكر الَّذِي حدث يوم انقسمت الأمّة إلى طوائف وإلى فرق؛ فريق تمسك بالنص في قضيّة الإمامة ورفض العقل، وفريق طرح العقل في مواجهة النص. قضيّة تحتاج إلى معالجة وتحتاج إلى إعادة طرح وتفسير. إنك تستطيع الآن لو أن مريضا لديه خراج وعنده آلام، تستطيع أن تعطيه بعض المسكنات فيفقد الإحساس بالألم لكن لا يعني أنّه شفي. يحتاج المريض إلى إزالة الجرثومة برفع الخراج، وقد لا يكون إلا بعمليّة جراحيّة. نحن عالجنا هذا الأمر بكتابات وقلنا: لا؛ ليس هناك نص وعقل متمايزان، والشريعة عقليّة، والنص طيب والعقل طيب. ولكن دائما يعاد طرح المشكلة وينشب الصراع الخبيث في الجسم الَّذِي يحتاج إلى استئصال؛ والاستئصال يحتاج إلى دراسة وتقديم مقنع. فحينما نقدم مثلا دراسة في بيان المنظور الإسلاميّ الحقيقي لقضيّة النص والعقل، ونفسر كيف تحول النص والعقل إلى فريقين وافتعل صراع بينهما وحدث مَا حدث، آنذاك ينتهي الخراج ويصبح واضحا ومفهوما، وكلما أعيد طرح المشكلة كان الناس على وعي كافٍ يحول دون تحويلها إلى قضيّة صراع، ودون أن تتحول الأمّة إلى فريقين يصطرعان حول هذا الموضوع.

٢ – معضلة السببية:

هذه قضيّة من قضايا العقل المسلم، فالله -سبحانه وتعالى— ربط المسببات بالأسباب، هكذا اقتضت سنته أنّه لا شيء يحدث في هذا الكون بدون أسباب، وهو —سبحانه وتعالى- الخالق للأسباب والمسببات وسبحانه وتعالى قد سخر من ذلك الإنسان الَّذِي يريد أن يصل إلى نتيجة دون مقدمات، أو إلى سبب دون أسباب؛ فقال: **[كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ]** (الرعد:١٤) يريد الماء؛ اذهب إلى الماء واغرف واشرب، أمّا لو مسكت السبحة وظللت تذكر الله سبحانه وتعالى كما تشاء من أجل أن يأتي الماء إليك ليدخل فاك فلن يفعل، سنّة الله -تبارك وتعالى- اقتضت أنك أنت الَّذِي تباشر عمليّة الشرب، وأنك أنت الَّذِي تطلب الماء. **[وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ]** (الرحمن:٦) فالنجم خاضع للسنّة، والخضوع للسنّة

الإلهيّة هُوَ قانون الله –سبحانه وتعالى– الَّذِي لا يمكن خرقة إلا بإرادته، لا يخرقه إلا واضعه على سبيل المعجزة أو الكرامة وإلا فالسنن لا بد من ملاحظتها، هذه هِيَ عقيدة الفرد المسلم.

نجد في نهاية القرن الثاني وبداية القرن الثالث الهجري أن القضيّة تثور بطريقة أخرى جاءتنا بعد الترجمة من اليونان والتراث العالميّ، وإذا بهم يقولون: إنّ القول بوجود سبب فيه معنى الشرك؛ كيف؟ قالوا: لأنّ السبب هُوَ المؤثر، وإذا قلنا بوجود مؤثر غير الله –سبحانه وتعالى– فقد أصبح ذلك شركا... فماذا تقولون؟ قالوا: نقول بأن العلة والسبب الوحيد في الكون هُوَ الله –سبحانه وتعالى. تصوروا كم كان لهذه الفكرة من أثر تربويّ سيئ على الأجيال المسلمة بعد ذلك؛ أثر خطير، دمر الشخصيّة الإسلاميّة تدميرا تاما، أصبح علماء الكلام يناقشون في قضيّة السبب، فحتى الإمام الغزالي نسبوه إلى البدعة حينما قال: النار تحدث الإحراق بمشيئة الله سبحانه وتعالى... قالوا: كيف تقول النار تحدث الإحراق؟ لأنّ النار لا تحدث الإحراق. قال لهم: إذن مَا النار؟ الله –سبحانه وتعالى– خلق فيها هذا، ولولا أنّه قال: **[يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ]** (الأنبياء:٦٩) لاحترق إبراهيم، ولكن جاءت سنّة أخرى، أمر آخر إلى النار أن تكون بردا وسلاما، فتحولت طبيعتها وتغيرت بموجب الإرادة الإلهيّة والأمر الإلهيّ، لذلك تجد العجب العجاب حين تقرأ تعريفات المتكلمين للعلة والسبب؛ فيقال لك: العلة؛ هِيَ الموجب بإرادة الله –تبارك وتعالى. وأخيرا حل الأشاعرة المشكلة بأن قالوا: العلة هِيَ المحرك للسبب وليست السبب. نقاش سخيف أخذ من العقل المسلم قرابة ثلاثّة قرون إلى أن وصلنا إلى حل وسط ورأينا التناقض الفظيّع. فالله –سبحانه وتعالى– وضع سننا وعللا وأسبابا ومقومات وخلق نتائج، فمن يستطيع أن ينكر هذا؟

حين ندرس التأثير التربويّ على العقل المسلم، نجد أن الإنسان المسلم أصبح شخصيّة قلقة مهتزة، مرة تعتبر السبب وتأخذ به، ومرة تلغي السبب، مرة تنتظر حلول الشيء بدون أسباب، ومرة تتوصل إلى النتيجة بأسباب غير الأسباب الموصلة إليها! وحينما يعجزها الأمر تقول كل شيء بإرادة الله –تبارك وتعالى– وتنسب الأمر للإرادة الإلهيّة، ويصبح الإنسان في مأزق عقائديّ؛ يعني: إما تناقش الموضوع وتحاول إن تفنده فتنسب إلى الكفر أو البدعة، وإمّا أن تسكت وتكون إنسانا لا منهجيّا ولا علميّا، لا تستطيع أن تربط بين مسبب وسبب، ولا تستطيع أن تربط بين نتيجة ومقدمات، فإذن هذه قضيّة أيضا من القضايا الهامّة.

٣ – ومعضلات أخرى:

قضيّة التأويل: قضيّة التأويل وخاصّة فيما يتعلق بصفات البارئ عز وجل وتأويل المتشابهات والنصوص وما جرته علينا من مشكلات، هِيَ كذلك قضيّة جديرة بالاهتمام وتكثيف البحوث والدراسات حولها.

قضيّة الجبر والاختيار:

وهي قضيّة من قضايا الفكر التي لا بد لها من معالجة، لا تزال تثار اليوم وستثار غدا وبعد غد. فلو عرفنا أن خلفيّة هذا القضايا خلفيّة سياسيّة، يعني باختصار شديد نستطيع أن نقول مثلا: معاوية حين آلت إليه الخلافة سمع أحد الصحابة حديثا عن رسول الله –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ– كان يردده في بعض الأحيان: «**اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا راد لما قضيت**...» ويقولون: إنّ معاوية تلقف هذا الحديث وعممه على الجميع، وطلب من الناس وبدأ في مقدمتهم يردده في الصباح وفي المساء، ويعتبره من الأمور المأثورة التي لا بد من ترادها في الصباح والمساء؛ هذا شيء طيب، وذكر الله –سبحانه وتعالى– هُوَ جزء من عمل اليوم، لكن القضيّة الأساسيّة التي ربطت به أو بنيت عليه، وعمليّة ترويج معاوية لهذا الأمر، كانت مرتبطة بهذا الأمر، كانت مرتبطة بأمر أن كل هذه الأشياء التي عملتها أنا أو تعمل في الدولة هِيَ لله –سبحانه وتعالى– وهو المسئول عنها. مما دفع الْحَسَن البصريّ –والرجل من أئمة التابعين وكبارهم– وعاصر وشهد واتصل بخمسمائة من أصحاب رسول الله –صلى الله عليه وآله وسلم– أن يكتب رسالة قيمة إلى الخليفة عبد الملك بن مروان يعاتبه فيها على إشاعة هذا النوع من الأفكار ويقول له: إنكم ترسلون شرطتكم يهينون الناس ويظلمون الناس وتقولون هذا بقدر. إن من وكلائكم وعمالكم من يشرب الخمر ويعتدى على الناس وتقولون هذا بإرادة الله –تبارك وتعالى: **[قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ]** (الأعراف:٢٨). رسالة طويلة قيمة جدا تعالج وتبيّن الخلفيّة السياسيّة وراء قضيّة الجبر والاختيار التي تحولت إلى قضيّة عقيديّة. حينما ندرسها على أنّها قضيّة أوجدتها السياسة، ونخرج مَا كتب حولها بعد ذلك وكل النقاش المتعلق بها من المأزق العقيديّ تصبح قضيّة فكريّة تناقش سياسيّا وتحلل وتنتهي، ولكن حينما ننقاشها من الزاوية العقيديّة تكون شكلا آخر. مناقشتها من الزاوية العقيديّة عمليّة ممزقة للأمّة باستمرار، لأننا كلما ذكرناها ينقسم

الناس فريقين؛ فريق جبريّ، وفريق قدريّ. وبالتالي هذا يكفر هذا، وهذا ينسب ذلك إلى البدعة. لكن حينما تقدم بطريقة مدروسة محللة تأخذ خلفيّتها السياسيّة والفكريّة، وكيف نشأت ويقرؤها الناس وتنتهي، وتصبح قضيّة أخرى بعيدة عن المأزق الَّذِي تناقش فيه.

قضيّة التقليد والاجتهاد:

قضيّة أخرى من قضايانا الحادة التي تطرح في كل زمان ومكان، الاجتهاد والمذهبيّة والامذهبيّة، كسر باب الاجتهاد، غلق باب الاجتهاد، إلى غير ذلك... قضيّة تحتاج إلى معالجة؛ لأنه كانت لها آثار تربويّة خطيرة في حياة الأمة.

مثلا؛ وصف الجاحظ أمّة المسلمين في القرن الثالث بقوله: «**أمة قد أصبحت تحمل عقليّة العوام، ونفسيّة العبيد، وطبيعة القطيع**»؛ في الحقيقة هذا الوصف يصلح لنا، وقد وصف الجاحظ به الأمّة في تلك الفترة، وهي أمّة كانت لا تزال سيدة أمم الأرض والدولة الأولى في العالم، ومع ذلك كان يقول: «**أمّتنا اليوم هِيَ تحمل عقليّة العوام، ونفسيّة العبيد، وطبيعة القطيع**».

هذه من أين جاءت؟ جاءت من قضيّة التقليد. وقضيّة التقليد في البداية؛ أجدادنا وأسلافنا أرادوها قضيّة اختيار للأمّة مؤقت. إن الأمّة كانت تمر بأزمة، حكامها يريدون أن يفعلوا مَا يشاءون ويريدون أن يستعينوا بطائفة من علماء الدنيا، وعلماء السوء حولهم يعرفونهم بكل شيء، فأرادت الأمّة أن تدافع عن دينها؛ فقالت: لا؛ أي شيء لم يرد في الكتاب أو السنّة، ولم يرد في أقوال هذه الأئمة الأربعة الذين يعتد بعلمهم ودينهم وورعهم وتقاهم مرفوض... يريدون أن يقفلوا الباب أمّا وعاظ السلاطين بهذه الطريقة، مَا كانوا يريدونها قضيّة تصبح هِيَ الشرع اللازم وتنسى آيات الكتاب وتنسى أحاديث النبي –صلى الله عليه وآله وسلم، ويأتي عالم من «**كبار علماء الحنفيّة**» في القرن الرابع الهجري أَبُو الْحَسَن الكرخي ليقول: «**كل آية أو حديث يخالف مَا عليه أصحابنا؛ فاعلم أنّه مئول أو منسوخ**» فأصبح الأصل هُوَ المذهب الحنفيّ والفرع هُوَ الكتاب والسنّة. كانت هذه قضيّة في غاية الخطورة، وأزمة من أزمات العقل المسلم الحادة، فكيف تحولت القضيّة من أمر أريد به الاحتياط إلى أمر عادي وله آثاره النفسيّة والتربويّة على هذه الأمة؟

صور من الأزمة الفكريّة:

إنّني أعتبر حقيقة أن الَّذِي حول الأمّة إلى قطيع يسوقه كل من يتحكم فيها وفي شئونها هُوَ مثل هذه القضايا. فخلفيّتنا التربويّة والثقافيّة هيأتنا لأنّ نكون بهذه الصورة، أناسا مهزوزين، أحد كبار فقهائنا؛ الإمام الماوردي غفر لنا وله يقول: «**وتجوز إمامة الجور وتمضي أحكامها، وتجوز إمامة الجبر يعني المتغلب**»، ويقول: «**وتنعقد الإمامة ببيعة اثنين قياسا على عقد النكاح**». وهو من كبار الفقهاء توفي (سنة ٤٥٠هـ) فحينما تكون في تراثنا الفكريّ والفقهيّ هذه الثغرات «**الآن أي شخص يبايعه اثنان صار إماما قياسا على النكاح، أي من يتزوج حرمة كمن يحكم أمّة**»!، يكون طبيعيّا مَا أصابها من الوهن والضعف. ومشكلات الأمّة اليوم حتما لها علاقة بهذه الأفكار، هذه الأفكار هِيَ التي كانت وراء تحول الأمّة إلى قطيع، فيحدث سقوط بغداد (سنة ٦٥٦هـ)، وتعلق تلك الرقاب وتصبح المآذن من جماجم، وتسيل الأنهار من دماء المسلمين.

هذا الفكر الميت الَّذِي لا يستند إلى شيء من كتاب الله -تبارك وتعالى- ولا إلى شيء من سنّة رسول الله —صلى الله عليه وآله وسلم— هذا الفكر الَّذِي نجم عن مثل هذه العمليّات لا بد من معالجته. المعالجة لا بد أن تكون بعمليّات جراحيّة؛ يعني: لو أن أحد الطلبة في الجامعات يأخذ موضوع رسالة مثلا حول الاجتهاد، فتطلب منه أن يحلل ويدرس، قد يبدأ في هذا وربما وجد من يوجهه، لكن هذا المسكين لا تجاوز رسالته إلا إذا أخذت الشكل الوصفي البعيد عن التحليل. ودائما تسمعون في المناقشات التي تجرى لرسائل الماجستير والدكتوراه في أيّ جامعة من جامعاتنا العربيّة والإسلاميّة يجرم الطالب إذا قال: «**الذي أراه كذا**»؛ إذ يقال له: من أنت حتى ترى؟ كيف تقول: والذي أرى؟ ومن أتيت بهذا؟ وكأن المطلوب من الإنسان أن يلغي عقله ورأيه، وإذا أتى بكلمة ولم ينسبها إلى مرجع قديم فهذه جريمة من الجرائم، ويمكن أن يفعل بالباحث مَا يفعل. فالمطلوب دراسات ليست وصفيّة، وإنّما دراسات تحليليّة نقديّة، تعيد طرح هذه القضايا، تبيّن سلبيّاتها وآثارها، والقضايا التي بنيت عليها، والمشكلات التي انبثقت عنها؛ لكي نستطيع أن نصحح مسار العقل المسلم.

على طريق العلاج

إذن أزمة الفكر التي نعيشها أزمة حقيقية موجودة في جانب المصادر والمناهج، جانب القضايا الأساسيّة التاريخيّة التي أحدثت أسوأ الآثار السلبيّة في عقليّتنا وفي نفسيّتنا وفي طريقة

تفكيرنا، والتي أحبطت محاولات إصلاح كثيرة جدا. محاولات الإصلاح في هذه الأمّة كثيرة جدا ومعظمها ومحاولات مخلصة ناجحة، لكن كثيرا مَا تأتي هذه القضايا في وسط الطريق، لأنها «**خراج**»، فينفجر، فإذا به يمزق أيّة حركة إصلاحية أو يحبطها، أو يصادرها قبل الوصول إلى نتيجة. فنحن إذن في قضيّة الفكر بالذات محتاجون إلى وضع مناهج للفكر السليم، بعيدا عن الشخصيّة الفكريّة الغربيّة أو سيطرتها. معالجة معضلاتنا أو مشكلاتنا بالنسبة لما هُوَ مطروح حاليا. نعتقد أن لنا شخصيّتنا المميزة في هذا المجال. وأن هناك قضايا مشتركة بيننا وبين بقيّة البشر، فلا بد أيضا من تحديد القضايا المشتركة، والقضايا ذات الطبيعة الخاصّة، فمثلا جميع العلوم والقضايا الفكريّة المتعلقة في موضوعات العلوم الطبيعيّة وظواهرها والمادة وخصائصها هِيَ من قبيل الفكر المشترك بيننا وبين الناس الآخرين، مناهجها تتميز بالحياد العلميّ؛ لأنها قائمة على التجربة الملموسة بالحياة الماديّة. أنت لك عينان والغربيّ له عينان، لك أذنان وله أذنان، لك دماغ وله دماغ، الحياة لا تختلف ووظائفها مشتركة وقدراتها مشتركة لذلك فالحقائق الماديّة مثل الدليل التجريبيّ الحسيّ، والحياة لا تختلف والتجارب لا تختلف، ومن الممكن أن يقوم بها هذا الإنسان أو ذاك، ومن ثم فهي لا تتغاير بتغاير القوميّات والأديان والحضارات والمذاهب، ويمكن الاستفادة من كل مَا وصلت إليه البشريّة في هذا المجال، فعلوم الكون واحدة على المستوى الإنسانيّ، وموضوعاتها المادة وظواهرها كذلك لا تتغير باختلاف الأفكار والأديان والحضارات، فعلوم الرياضيات بفروعها؛ الكيمياء الطبيعيّة، الطب، الجيولوجيا، لم ولن تختلف مناهجها وحقائقها وقوانينها بالاختلاف الأديان. يلتحق بهذا المنظومة من حقائق العلوم الطبيعيّة الخاصّة بدراسة المادة وظواهرها العديد من ثمرات التجارب الإنسانيّة في الوسائل وفي النظم والمؤسّسات والخبرات، ترشد الأداء الإنسانيّ، وهو يسعى إلى تحقيق الغايات. فعلى الرغم من تمايز غاياتنا كمسلمين ومقاصدنا عن غايات ومقاصد الآخرين، لكن التجارب الإنسانيّة في الوسائل والنظم والمؤسّسات كثيرا مَا تكون صالحة ممكنة الاقتباس، مع شيء من التطور والتمثل والاستلهام. مثلا هذه المؤسّسات الموجودة في الغرب لرقابة الدولة، المؤسّسة البرلمانيّة على سبيل المثال، مؤسّسة جيدة توفر نوعا من الرقابة، لكن لا أريد فيها تطبيق الديمقراطيّة، وإنّما أريد أن تكون مؤسّسة لتطبيق الشريعة ومراقبة تطبيق الشريعة، الصورة بالنسبة لي غير ديمقراطيّ، الصورة التي أمرنا الله –سبحانه وتعالى– بها هُوَ أن نتشاور جميعا من أجل الوصول إلى الرأي الأصوب فيما

تشاورنا فيه، الديمقراطيّة الغربيّة عمليّة صراع بين الإقليّة والأكثريّة بين رجال الكونجرس والنواب، بين الحكم والمعارضة، من أجل دعم قرار معين. كلما كثرت الأصوات لصالح قرار معين، كلما أخذ بذلك القرار، فكأن الأمر هنا عمليّة صراع لاتخاذ قرار لصالح مجموعة من هؤلاء. بالنسبة لي الشورى عندي هِيَ عمليّة حوار وتعاون من أجل الوصول إلى الحق والصواب والأفضل، فكل هؤلاء يتعاونون معًا في حوارهم، المعارضة والحكم، هذا الحزب وذاك من أجل الوصول إلى مَا هُوَ أفضل. هذا شيء مغاير، لكن المؤسّسة نفسها؛ هل أقول كما تقول بعض الفئات الإسلاميّة أنّه لا يجوز الانتقاص من سلطة الحاكم الفرد، الخليفة يجب أن نعطيه كل الصلاحيات كما هُوَ الأمر في كثير من بلداننا الإسلاميّة؟ ولكن الفلسفة التي وراء المؤسّسة، طريقة استخدام المؤسّسة لدي فيه توجيه قرآنيّ، لكن المؤسّسة نفسها وطريقة الوصول إليها بالانتخاب المباشر أو غير المباشر، تجارب إنسانيّة يمكن أن أدرسها وأحللها واستفيد منها، دون أن اعتبر مقلدا أو تابعا. فإذا العلوم الطبيعيّة والماديّة والتقنية والتطبيقيّة احتاج فيها فقط إلى التوجيه. المطلوب اليوم أن توجه هذا العلوم وجه إسلاميّة في أهدافها وغاياتها ومقاصدها، فحين أحقق التقدم العلميّ أحققه على أساس أنّني لا أريد علوا في الأرض ولا فسادا. الحضارة المعاصرة حققت تقدما لإرادة العلو في الأرض والفساد، فالقوى الكبرى تذهب إلى القمر وتجري تجارب، تصنع الأسلحة الكيماويّة والجرثوميّة وغيرها، كل هذه الأشياء من أجل العلو في الأرض ومن أجل الفساد. أنا بالنسبة لي يجب أن أعتني بكل هذه العلوم، ولكن ينبغي أن أكون محكوما بهذه الضوابط العامّة. لا أبتغي العلو في الأرض ولا أسمح لأحد أن يكون جبارا، ولا أبتغي الفساد في الأرض.

واحد يريد أن يزرع أفيون أقول له: هذا ممنوع.. سيقول لماذا؟ هذه زراعة والله -تبارك وتعالى- أباحها لنا؟ أجيب نعم؛ ولكن هذه الزراعة ستؤدي إلى الفساد، فلتزرع الأوراق الطبية مثلا، في رعاية خاصّة. إذن بالنسبة لهذه العلوم مطلوب إيجاد هذا الاتجاه، بالنسبة للمؤسّسات مطلوب اقتباس النافع منها ووضعه وحفظه بإطار الإسلام.

لكن هناك قضايا أخرى أساسيّة خطيرة جدا، وهي التي يسميها الغرب بالعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، فهذه بيت الداء. هذه العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة موضوعها وهدفها الإنسان، وتختلف المدارس والأديان والحضارات فيها فلكل مذهب أو حضارة أو ثقافة أو دين فكرته الكليّة

عن الكون والحياة والإنسان، فكرته الكليّة عن الإنسان وغاية وجوده وطبيعة هذا الوجود، والأخلاق التي ينبغي أن تسود، والنظم والعلاقات التي ينبغي أن تكون، العلوم والثقافات والفنون التي ينبغي أن تصل إليه أو لا تصل، كل هذه الأمور هِيَ موضوعات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة. هذه العلوم كما قلنا تختلف عن علوم المادة وتختلف عن قضايا المؤسّسات، ليس فكرا مشتركا عالميّا وإنّما تتمايز فيها الأديان المذاهب، ربما نجد في بعض مناهجها نوعا من المشترك الإنسانيّ. فإذا تتبعنا قضيّة الاستقراء في البحث، ودراسة الوسائل، أمكن أن نتعرف على مَا هُوَ صعب أو سهل، مَا هُوَ ضار أو نافع، مَا هُوَ مصلحة أو مفسدة، ربما بالنسبة للمناهج يمكن أن نجد مشتركا إنسانيّا بيننا وبين الحضارات الأخرى، ولكن بالنسبة لتصور الإنسان ولتصور الحياة ولتصور الغايات والأهداف تختلف الأديان تماما.

إن العالم المسلم حين يدرس الهندسة أو الطب لا يجد مشكلة في التوفيق بين الفكر الطبي أو الهندسي وبين الوسائل. لكن حينما يدرس الفلسفة الغربيّة التي وصلت إلى حد أن جعلت الإنسان إلهًا في هذا الوجود، وجعلت الله –سبحانه وتعالى– دون مرتبة الإنسان، يقولون: يجب على الله –تبارك وتعالى– رعاية المصلحة، ويجب على الله –تبارك وتعالى– أن يغفر، ويجب على الله –تبارك وتعالى– أن يعطي كل الأشياء، ويجب أن يقبل –تبارك وتعالى– الخطايا ويسامح، ولكن ليس له أن يقول: هذا حلال وهذا حرام، يجب أن يحلل الزنا، يجب أن يحلل الربا في المجال الاقتصاديّ، كل الحدود تعداها الإنسان بهذا القول؛ ويضيفون: ليس لله –سبحانه وتعالى– أن يدخله النار، هذا تهديد للإنسان ولحريته، كل مَا يحتاج إليه أن يذهب بجسده في زيارة لكنيسة وتسوى العلاقات بينه وبين الله –تبارك وتعالى.

إنّني أشمئز حين أسمع أو أقرأ عن الفنون الغربيّة التي اعتمدت العرى، واعتبرت أن قيم الجمال كلها تتعلق بالرجل العري والمرأة العارية، وتماثيل العرى تملأ الساحات والميادين. أنا أشمئز من هذا؛ لأنّني إنسان مسلم ابن حضارة عرفت الستر، إن انحدرت من الفراعنة فالفراعنة في مختلف ظروفهم كانوا يضعون غطاء، وإن انحدرت من البابليين أيضا كان عندي حضارات مستورة إلى حد ما، فمن أيّة جهة انحدرت من أيّ مكان نشأت أجد أن العرى عندي لم يكن أمرا مقصودا. العرى عندي إهانة للإنسان بينما العرى عند الغرب كرامة، لذلك فأنا أنفر من فنونه ومن آدابه، ولا أجد هذه

الألفة التي أجدها في العلوم التطبيقيّة والتقنية التي أفرزتها حضارته وعقله. لذا: فإن الفلسفة والعلوم الاجتماعيّة والفنون والآداب والعلوم الإنسانيّة يجب أن تكون من قبيل الصناعات المحليّة.

سأنتقل إلى قضيّة المعرفة في مجال العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، هذه العلوم موضوعها الإنسان، فردا ومجتمعا ودولة، وثقافة الإنسان ونفسيّته وعقليّته وكل منهما يخدم جانبا من هذه الجوانب. أول شيء علينا أن نفعله هُوَ أن نقضي على خرافة أن القرآن الكريم والسنة النبويّة مصدران فقط للحكم الشرعيّ؛ حلال أو حرام. هذه نعتبرها خرافة وقضيّة خطيرة أصابت العقل المسلم في وقت مبكر، فجعلته يلغي حوالي ستة آلاف آية من آيات القرآن الكريم، ويتشبث بجملة آيات محدودة هِيَ الآيات المتعلقة بقضايا الحلال والحرام فقط. نحن نريد أن يتحول القرآن الكريم إلى مصدر ثقافة ومعرفة كما هُوَ مصدر للحكم الشرعيّ. الفقهاء قالوا: آيات الأحكام ثلاثمائة آية، وبعضهم قال: خمسمائة آية هِيَ مجموع آيات الأحكام، وقالوا: إنّ أحاديث الأحكام تتراوح بين خمسمائة إلى ألف ومائة أو مائتين.

نحن نريد أن نقول: نعم لكل هذا، ولكن لدينا قضايا أخرى هِيَ القضايا التي عرفت بالعلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، القرآن الكريم تناولها وبحثها ووجه إليها، ولا بد أن نكتشف هداية القرآن الكريم في هذه المجالات. علم النفس يدرس الإنسان، علم النفس يدرس النفس الإنسانيّة، علم الاجتماع يدرس المجتمع وقضاياه ومشكلاته. هذه الأمور تعرض لها القرآن الكريم والسنة النبويّة المطهرة، كيف نجعل القرآن الكريم والسنّة النبويّة لا مصدران للأحكام فقط وإنّما مصادر للثقافة والفكر والمعرفة والحضارة، يرجع إليها كل مسلم، ولا يمر يوم على مسلم مهما كان تخصصه إلا ويتعامل مع آية أو حديث؟ من أجل أن نفعل هذا:

(١) يجب أن نعيد قراءة القرآن الكريم وما صح من السنّة النبويّة المطهرة ونقوم بعمليّة تصنيفها وتوزيعها على قضايا العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة، لنكتشف توجيهاتها وأحكامها. كثير منها قد اختلط بعلم الفقه في تاريخنا ويحتاج إلى إعادة درس وتصنيف وبعضها لم يلتفت إليه أئمتنا من قبل علينا أن نكتشفه. وكما وضع الفقهاء والأصوليّون مناهج الاجتهاد للوصول إلى الحكم الشرعيّ لا بد أن نضع منهاجا للتعامل مع الكتاب والسنّة في مجالات العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة لنتوصل من خلاله إلى كيفيّة استخدام الكتاب والسنّة في هذه المجالات.

(٢) لا بد من الاطلاع على كل محاولاتنا التراثيّة في مجالات وقضايا هذه العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة. لأنّ بيننا أخوة متخصصين في التربية وأخوة متخصصين في الإعلام وفي علم النفس.. عندي شاب جاء يعمل معنا كمساعد منذ فترة، قدمت له كتابا من كتب فخر الدين الرازي، والشاب تخصص علم نفس وقد درس في أمريكا، هذا الشاب لم يعرف يوما أن المسلمين يعرفون شيئا يسمى علم نفس، فجاءني؛ وقال: أنا أستغرب! فكل الَّذِي قرأته في الجامعة ناقص وحتى المصطلحات مخيفة، فهل صحيح أن هذا الكتاب موجود (سنة ٦٠٦هـ)؟ فقلت: نعم؛ هذا العالم توفي (سنة ٦٠٦هـ)، وهذا الكتاب موجود قبل أن يخرج فرويد وأصحاب مدارس علم النفس المختلفة بقرون.

هذا أحد أبناء المسلمين –على سبيل المثال– لا يعرف أن القرآن الكريم والسنة النبويّة والتراث يمكن أن يكونوا مرجعا له، ولذلك يتحول إلى أستاذ علم النفس وإلى طبيب نفساني، ولكنه في كل منطلقاته ومناهجه يتعامل من خلال المفهوم الغربيّ والرؤية الغربيّة والفلسفة الغربيّة. فإن المطلوب أن توجد مشاريع لتيسير اطلاع المتخصصين في هذه المجالات على مَا لدينا في التراث الإسلاميّ وتصنيفه ونقده وغربلته ودراسة مَا فيه مما يتعلق بهذه القضيّة ويعالجها.

(٣) لا بد من دراسة التراث المعاصر، هذا الَّذِي يسمى بالتراث الغربيّ تراث إنسانيّ، كل البشريّة قد أسهمت فيه، وهم قد استفادوا من كتب أسلافنا كثيرا، وتمثلوها وعرضوها من رؤيتهم ومنظرهم، لا بد أن ندرسها لكن بغير الطريقة التي ندرسها بها حاليا. لا بد أن ندرسها دراسة ناقدة فاحصة، ومعنا مقاييس الكتاب وموازين السنّة النبويّة المطهرة، مزودين بما في تراثنا من رؤية في هذه المجالات، ندرسها دراسة نقديّة فاحصة تمكننا من غربلتها ومن التميز بين غثها وسمينها وصالحها وطالحها، ونافعها وضارها، وتمثل المفيد الصالح منها بعد ذلك. ومن أجل الوصول إلى الهدف في هذا لا بد من وضع منهاجيّة في التعامل. وكما قلت: إذا كان إخواننا الأصوليّون قد وضعوا منهاجيّة للتعامل مع النصوص الشرعيّة في مجال أصول الفقه، فنحن لا بد أن يكون لنا منهج للتعامل في هذه المجالات ويعطينا فيها المطلوب، ومجمل هذا التطور يمثله (الشكل الأول) الَّذِي عرضناه حين التطرق لأنماط التعامل مع الفكر الغربيّ.

وفي الآخر؛ أشير إلى أن المعهد العالميّ للفكر الإسلاميّ يقوم على هذه القضيّة بمحاولة وضع مشاريع وتحويلها إلى أوراق عمل أمّا الوسائل التي يستخدمها فهي:

- الندوات: مثل ندوتنا هذه حيث جلسنا وتحدثنا وسنناقش ونبلور أفكارنا وآراءنا ونصبح على قدر من الوعي المشترك على هذه القضايا. ندوتنا أحيانا تكون متخصصة بعلم الحدود، وأحيانا تشمل حزمة علميّة كما يقال مثلا مجموعة العلوم السلوكية، أو نأخذ علم التربية وحده أو علم النفس وحده. ومن هذه الدراسات التي يقدمها العلماء أو الأساتذة المشاركون تتبلور رؤية في سائر هذه القضايا.
- نقوم بعمليّة استفتاء العلماء والباحثين المتخصصين الذين نكون قد اقتنعنا بقدرتهم على العطاء والإبداع في هذه المجالات.
- نقوم بمحاولة تشجيع طلبة الدراسات العليا على أخذ موضوعات من شأن دراستهم لها أن تشكل تراكمات في هذه المجالات يمكن توظيفها والاستفادة منها في أوقات لاحقة.
- نقوم بعمليّة نشر الأبحاث والدراسات من خلال طرق النشر المختلفة، التي تستخدم الكتاب والمجلة والصحيفة وغيرها من الوسائل المناسبة.
- نتبنى بعض الدراسات الجادة التي يتقدم بها أصحابها سواء قبل تخرجهم أو بعد حصولهم على درجاتهم العلميّة.
- نقوم في بعض الأحيان بإعداد مشروعات علميّة واسعة يشترك فيها أكثر من أستاذ، لإصدار دراسة أو الكتابة في قضيّة، مما يساعد على تبادل الآراء، وتبادل الأفكار.
- إيجاد نوع من (العصف) الفكريّ من أجل بلورة هذه القضايا.

هذا الاستعراض السريع جدًا لهذه القضيّة، والعام في الوقت ذاته يوضح لكم جسامة الأزمة وخطورة القضيّة التي نتصدى لها. وكما قلت في البداية: نحن نعتقد أن هذه القضايا لو توافرت على دراستها جامعتنا في العالم الإسلاميّ الخمسون وذهبت وانصرفت بكل مَا لديها فربما تستطيع –بعد خمس عشرة سنة أو عشرين– أن تعطينا شيئا ما. أمّا معهد كمعهدنا بجهوده الصغيرة فربما يحتاج إلى أجيال. لكن مهمتنا الأساسيّة فيما أعتقد هُوَ حسن التخطيط والوصول إلى تصورات عمليّة يمكن تعميمها على المسلمين وتوعيتهم عليها، ليتكاثر عدد الأفراد القادرين على الإسهام. فحينما بدأنا

البداية الأولى –وهناك تجربة طريفة يستحسن ذكرها، عملنا كتاب إسلاميّة المعرفة باللغة الإنجليزية (islamization of knowledge) وجئنا بقائمة من سبعة آلاف من علماء الإسلاميّات والاجتماعيّات في العالم الإسلاميّ والغرب أيضا، أرسلنا إلى خمسة آلاف منهم رسالة مع نسخة من هذا الكتاب، وطلبنا منهم دراسة الكتاب، والنظر في هذه القضيّة، ودراسة ورقة العمل المختصرة، ودراسة الخطة المختصرة، وإعطاءنا آراءهم أو نظريّاتهم في هذا الأمر. أذكر أن أجور البريد التي صرفت في هذا الموضوع جاوزت خمسة عشر آلاف دولار. كم عدد الذين أجابوا؟ الذين أجابوا فقط مائة وثمانية وثلاثون من خمسة آلاف، منهم ستة وخمسون كتبوا أبحاثا، والباقي كتب رسالة يشكر... إلخ. من ستة وخمسين بحثا لم نجد غير ثلاثّة أبحاث توافق المواصفات المطلوبة، وثلاثّة أبحاث أخرى من رجال المعهد نفسه، أي أن الحصيلة هِيَ ستة أبحاث فقط يمكن أن تقدم. هذا يعطينا انطباعا أنّه ربما ضمن كل ألفين من هؤلاء نجد واحدا من العلماء عنده الاستعداد للعطاء والإسهام. هذا في تلك الفترة.

أمّا الآن فنحمد الله –تبارك وتعالى– ونشكره، فالأمر قد تغير، والاستجابة أصبحت أفضل بكثير، لكن مَا تزال القدرات دون المستوى المطلوب، مما يدل على أن العقليّة المسلمة نفسها تحتاج إلى عمليّة تغيير وتثوير كما يقال... «**ثوروا القرآن لتفقهوه**». هذه العقليّة لطول المران على التقليد أصبحت عقليّة عوام لا تكابد ولا تعاني لذلك فهي تحتاج إلى عمليّة غسيل وإلى عمليّة إثارة ومن جديد، من أجل أن تعطي. لذلك قررنا أن تصدر هذه القضيّة للأمّة كلها وأن تعرض عليها؛ لأنها ليست قضيّة فئة ولا فكرة محدودة؛ بل هِيَ قضيّة فكر وثقافة تتعلق بالأمّة كلها، فيجب العمل على تربية الأمّة عليها ويجب العمل على استقطاب جميع الطاقات الخيرة القادرة على الإسهام.

يوجد في أمريكا الآن حسب آخر إحصائيّة أطلعت عليها حوالي سبعة وثمانين ألفا من المسلمين يدرسون قضايا مختلفة. ومن المؤسف أن معظم هذه القضايا التي تدرس هِيَ قضايا للعالم الغربيّ؛ يعني: سأل طالب في العلوم مَا الَّذِي تدرسه؟ فيقول: الفطرية الفلانيّة من فطريات ولاية (إنديانا) أو مدينة (شيكاغو) أو مدينة واشنطن مثلا. وعندما يسأل طالب الطب ماذا تدرس؟ يقول: أدرس المرض الفلانيّ من أمراض هذه الحضارة. وعندما يسأل دارس الإنسانيّات أو الاجتماعيّات ماذا تدرس؟ يقول: أدرس قبيلة غامد أو زهران. واللغويّ ماذا تدرس؟ يقول: أدرس

اللهجة الفلانيّة من لهجات أفريقيا أو آسيا... الهدف كلّه هُوَ أن الطالب المسلم العربيّ يقدم هُوَ أو بلده إلى هذا البلد من ستين إلى سبعين إلى مائة ألف دولار من أجل أن يتخرج في الدراسات الإنسانيّة والاجتماعيّة، وربما يصل إلى مائتي ألف في الأقسام العلميّة، يتعرض فيها الطالب إلى خسارة شخصيّته الثقافيّة، وإلى اهتزاز انتمائه الإسلاميّ والعقيديّ، ثم يقدم بحثا يخدم هذه الحضارة. يخدم أحيانا سياستها؛ أجهزتها، شركاتها وعلومها، وتكون النتيجة مجرد ورقة بأنه حصل على (البكالوريوس) أو (الماجستير) أو (الدكتوراه) أو يصبح موظفا يضاف إلى جيوش الموظفين منتظرا أن يأخذ راتبه ويذهب.

المهمة هنا خطيرة، على المنظمات والمؤسّسات الطلابيّة الإسلاميّة أن تسهم بعمليّة إنقاذ الشباب المسلم، بأن تعطيه دورا إيجابيّا مؤثرا، فإذا كان هذا الطالب ممن يدرسون الإنسانيّات والاجتماعيّة، فنريد أن يدرس قضيّة من قضايا الفكر ومن قضايا المعرفة فإما أن تكون دراسته في معالجة لقضيّة أو معضلة من معضلات الفكر الإسلاميّ أو قضيّة من قضايا المنهج، وإما أن يدرس قضيّة من القضايا التي يمكن أن تخدم إسلاميّة المعرفة أو عمليّة التبديل الثقافيّ. فإذا استطاع المعهد ومنظمات الطلبة في هذه البلاد توعية الشباب المسلم على هذا الدور نكون قد حفظنا أموال أمّتنا التي صرفت على هؤلاء الطلبة من الضياع ونكون قد حفظنا طاقاتنا، ونكون قد استخدمنا جامعاتهم من أجل خدمة قضايانا وليس العكس، فبدلا من أن يكون الطالب خادما لقضايا الحضارة الغربيّة نريد أن يكون المسلم والجامعة والقسم خادمين لقضايانا نحن، فعندما تكتب بحثا في قضيّة من قضايا التخلف في بلاد المسلمين، هذا البحث يؤدّي إلى التغلب على مشكلة من المشكلات في أقطار المسلمين، تكون قد قدمت شيئا في عمليّة النقل الحضاريّ وفي اجتياز حاجز التخلف. وعندما تعالج قضيّة من قضايا المنهج أو الفكر أو العلوم الإنسانيّة من منظور إسلاميّ تكون قد استخدمت مناهج هؤلاء وأجهزتهم وجامعاتهم وخبراتهم لصالح قضايا الأمّة بدلا من العكس.

هذا هُوَ العرض السريع الَّذِي حاولت جهدي أن أجعله موجزا، لكنه قد طال لعلي أن أكون فيه قد أوضحت بعض القضايا وطرحت وأثرت بعض الأمور، ولعلّ النقاش أو الأسئلة التي تثيرونها تساعد على مَا بقي.

أقول قولي هذا وأستغفر لي ولكم، وجزاكم الله -تبارك وتعالى- خيرا ووفقنا وإياكم إلى مَا يريده ويرضاه، والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

المناقشة:

س: ذكرت في المحاضرة الشيخ مُحَمَّد عبده وهناك آراء مختلفة عن الشيخ مُحَمَّد عبده، فما رأيك؟

ج: مشكلة الغزو الفكريّ: الطريقة التي أثيرت بها وتبني بعض الأخوة المفكّريّين المسلمين أطروحة نعم أن هناك غزوًا فكريّا وهزيمة. أنت حينما تنظر من هذا المنظار، من هذه الزاوية، وتبدأ مراجعة أعمال الأفغاني ومحمد عبده يمكن أن تخرج بمثل هذه النتائج. فلما كان مُحَمَّد عبده في تلك الفترة يتحدث عن المرأة المصريّة وأن لها حقوقًا وأنه يجب أن نعني بها وكذا وكذا، ثم يصدر قاسم أمين كتاب تحرير المرأة، ثم تأتي هدى شعراوي وتقود حركة تحرير المرأة في توجه غربيّ، إن من يربط بين هذه القضايا كلها، ثم يقال إن مُحَمَّد عبده هُوَ الَّذِي أملى على قاسم أمين كتاب تحرير المرأة... والحقيقة أن مُحَمَّد عبده من الجرأة أن يكتب هذا بيده لو أحب، فلماذا يكتب كتابًا بنفسه ثم ينحله لقاسم أمين أو شيء من هذا القبيل؟ لكن عندما ندرس القضيّة دراسة تاريخيّة بالشكل الَّذِي تسلسلنا فيه، نجد أن هناك في تلك المرحلة علماء مسلمين مخلصين إن شاء الله -تبارك وتعالى- لهم نوايا طيبة، ولكن ظروفهم لم تكن تسمح إلا بهذا آنذاك، هذا القليل الَّذِي قدموه والآراء التي تقدموا بها حين ندرسها في إطارها التاريخيّ سوف نجد لهم عذرًا ولا نسرف في اتهامهم. الإمام البخاري رحمه الله تعالى، رجل معروفة مكانته، حينما سئل في محنة «**خلق القرآن الكريم**» قال قولا موهمًا يعني فهمه الحكام على أنّه يوافق على أن «**القرآن مخلوق**»، وفهمه هُوَ على أنّه لا حرج فيما قاله؛ لأنه لم يكن صريحًا في هذا الأمر، ولذلك فإن محبيه تأولوا الأمر له ودافعوا عنه، وقالوا: إنّه لم يقل بهذه البدعة، ولم ينضم إلى القائلين بها، بينما قال شانئوه: إن الإمام البخاري يقول هذا، وتعتبر ثغرة من الثغرات في دراستنا له. ولكن حينما تدرس الواقع وتجد أن الرجل كما يقال وضع تحت عمليّة إكراه وعمليّة ضغط ليقول شيئًا، فقال شيئًا موريًا.

فحينما ندرس هذه القضيّة نضعها في إطارها الصحيح، وعندما ندرسها بهذه الطريقة نجد العذر لهؤلاء الناس، ونجد أن الأمر في إطار مقبول. أمّا لو درسناها بطريقة الدكتور محمد حسين في

كتابه «**حصوننا مهددة من الداخل**» فطبعًا سنعتبرهم عملاء وخونه وما أشبه ذلك. وأعتقد أن الشباب المسلم في الوقت الحاضر ينبغي أن يلم بهذه المراحل، وأن يعطي للضبط الزماني والمكاني والمؤثرات الخارجيّة والموضوعيّة حقها، وأن تكون دراسته لهذه الأمور دراسات مستفيضة تمكن من الرؤية السليمة والحكم المستقيم. لا شك أن جمال الدين الأفغاني في عصره ومحمد عبده في عصره أديا أدوارًا طيبة. مثلا: الشيخ مُحَمَّد عبد الوهاب رحمه الله تعالى ثار على البدع، وصادف أنّه في أثناء ثورته على هذه الأمور كان الإنجليز يتآمرون على الدولة العثمانيّة، فآتي وأقول: إن الشيخ مُحَمَّد مثلا إنّما عمل مَا عمل من أجل الإنجليز... أعوذ بالله تعالى. هُوَ عمل مَا عمل غيرة على العقيدة ورغبة في التصحيح والإصلاح، ولكن المصادفة فقط أنّه في نفس الزمن يكون هناك عمل آخر، لا يعني أن الرجل عمل هذا لهذا الغرض. فدراسة الظروف المختلفة لكل شيء تعطينا رؤية أقرب إلى السلامة والرأي الأفضل إن شاء الله –تبارك وتعالى– ويجعلنا نستفيد من تراثنا الفكريّ بشكل سليم.

س: سؤال عن الموضوع نفسه. تقول أسلمة الفكر، فهل تقصد الفكر منهاج الفكر أو تقصد الفكر الغربيّ، أم تقصد فكر المسلم... الواقع أنا أقع بتناقض إذا قلت أسلمة الفكر المسلم، وأقع بتناقض أكبر إذا قلت أسلمة الفكر الغربيّ، لأنه مبنيّ على مناهج وأصول مختلفة عن المناهج والأصول التي نبني عليها. وإذا تقصد أسلمة المنهج، منهج الفكر فتصبح عندي مشكلة أخرى وهي أنا عندي الآن منهج. فلماذا أسلم لمنهج آخر...؟

ج: في الحقيقة أنّني لم أقل أسلمة الفكر، دائمًا أقول إصلاح مناهج الفكر وإسلاميّة المعرفة، وفرق كبير جدًا بين أسلمة الفكر وبين إصلاح مناهجنا. كما قلنا أن للفكر الإسلاميّ مصادره، ولدينا مصدران الوحي والكون بكل مَا فيه. فمصدر الوحي نستخدمه في إطار وفي مجالات محدّدة حدّدها الشارع الحكيم، مصدر الوجود نستخدمه أيضًا في إطار ومجالات محدّدة حدّدها الشارع كذلك. نحن نعتقد أن هذا الفكر في فترة من الفترات قد اعترته واعترضته انحرافات وأطروحات مغايرة للأصول، أوجدت خللا نفسيّا وثقافيّا وتربويّا في بنائنا الفكريّ والنفسيّ والثقافيّ والتربويّ، مثل القضايا التي ذكرناها ومثل الانحراف في المنهج. فإصلاح مناهج الفكر يتم بأن نحدّد مناهجنا بالطريقة التي ذكرنا أن مصادر فكرنا من هذين المنبعين. منهجنا في التعامل مع هذه المصادر أيضًا نوضحه، قلنا: مع النصوص لدينا المنهج الأصوليّ، ومع الكون لدينا مناهجنا ومناهج الإنسانيّة

جمعاء. نستطيع أن نستفيد منها، وأن نتعامل معها إذا وضعناها في الإطار السليم الصحيح، فالقضايا أو المشكلات الفكريّة التي أثرت في العقل المسلم وفي الإنسان المسلم وفي المجتمع المسلم وفي الكيان الإسلاميّ أفسدت عليه تربيته وتوجهه وثقافته، وهي تحتاج إلى إعادة طرح وإعادة عرض بحيث تقدم مفسرة محللة وجميع آثارها وخلفيّاتها مدروسه، كيف حدثت؟ لماذا حدثت؟ مَا الآثار التي ترتبت عليها؟ كيف نستطيع معالجتها؟ هذا هُوَ كل مَا يتعلق بالأمر. أمّا بالنسبة للفكر الغربيّ فنحن نريد أن ندرسه ونطل عليه لا من المنطقين المتناقضين اللذين كنا فيهما في المرحلة الأولى، وهما إما موقف الإقبال والأخذ الكامل بدون تمييز، أو موقف الرفض الكامل بدون تمييز، وإنّما موقف الناقد المتبصر الَّذِي لديه موازين الكتاب والسنّة ومقاييسه الخاصّة التي يحتكم إليها في كل هذه الأمور، فينتقده ويأخذ الصالح النقي المنسجم مع العقيدة منه، ويرفض مَا أثمرته فلسفة الغرب وتوجهاته.

س: كيف ترون أن استمراريّة الحديث والسنة؟ نرى هذه الفكرة أسيرة النموذج الغربيّ كما أن التصورات ليست تصورًا جيدًا للحياة أو الوجود، مثلا الغرب دائمًا هُوَ مقياس لنا سواء تأخرنا أو تقدمنا وهذا بحد ذاته وقوع في الأسر، الغرب دائمًا هُوَ مقياس لنا سواء تأخرنا أو تقدمنا وهذا بحد ذاته وقوع في الأسر أيضًا؛ لأنك إذا أخذت النموذج الغربيّ كقياس للوجود حتى بعد تنظيف هذا المجتمع الغربيّ –حسب رأيك– من الأشياء غير الصالحة لا زلت أسير هذا المجتمع الغربيّ. ولتوضيح الفكرة أضرب مثلا: لنتصور أن هذه الدولة الأمريكيّة كل الناس بها مسلمون ملتزمون، هل حققت هدف الإنسانيّة؟ هل سيتحقق هدفك بمجرد أن نصل إلى هذه الحضارة وننظفها؟ وأرى التأثر بالغرب في قضايا كثيرة. مرحلة الموازنة قارنت بالغرب... أصبح يدافع عن الإسلام؛ لأنه أفضل من الفكر الغربيّ، انتقلنا إلى مرحلة مَا يدركه الغرب نطلبه أيضًا. هل هذه المراحل التي ذكرتها في الإطار الغربيّ وكأن كل هذه الفكرة وكل تصوراتنا وكل وجودنا منطلق من الغرب؟ وأرى –والله تبارك وتعالى أعلى وأعلم– أن خلافة الإنسان في هذه الأرض لها فكرة أخرى غير مرتبطة بالغرب، مَا أعنيه سواء وجد الغرب أم لم يوجد لا بد أن توجد هذه الفكرة؟

د. طه جابر: مَا البديل الَّذِي تطرحه؟

س: البديل؛ أنا أرى إذا ناقشنا الغرب أو أخذناه كمقياس، للخطر أن نكون كمن يضع قزمًا أمام عملاق يتحداه، فالحضارة الغربيّة لا تتوقف، مستمرة ونحن –إذا اخترنا هذا الحل أو هذا

الطرح- اخترنا أن نبدأ من الصفر، إذا أردنا أن نصل إلى هذه الحضارة مع التنظيفات التي ذكرت والله تبارك وتعالى أعلى وأعلم- هذا في المقياس الزمنيّ - يحتاج إلى قرون وليس إلى سنوات، كما أعتقد أنّني فهمت من تصورك للطرح.

د. طه جابر: طيب، مَا البديل؟

س: البديل أن نطرح المنهج بما نعتقد من التحديد، أن تكون نظرتنا جديدة أصلا ولا نأخذ الغرب كمثال لتحركاتنا؛ لأنّني إذا بدأت من جديد ووضعت الغرب كمقياس فمتى نصل إلى هذا؟

د. طه جابر: طيب مَا الجديد الَّذِي تحب أن تقدمه؟

س: أنا لا أحب أن أقدم جديدا أحب أن أعود أترك تراثيّ كما هو، وأنطلق كما انطلق الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- دون أن آخذ نموذجًا موجودًا أصلا. لا بد من رفض هذا المجتمع رفضًا كاملا، لأنّ مَا تعتبره صالحًا أصلا نابع من هذا المجتمع الغربيّ ومن فلسفته. مَا نراه الآن صالح وبمقياسنا نابع أساسًا من الفكر الغربيّ.

س: قلت: إنّنا نرجع إلى القرآن الكريم والسنّة النبويّة المطهرة في حل المشاكل... مثلا قضيّة «**السيكولوجي**» أو علم النفس، القرآن الكريم نفسه يحدّد دور الإنسان كيف يفكر، وحريته، مَا مشاكله، مَا أمرضه، القرآن الكريم نفسه عالج هذه الأمور... وكذلك سيرة الرسول -صلى الله عليه وآله وسلم- وتوجيهاته في تربية الأطفال، هناك أحاديث كثيرة تحل مشاكل كثيرة متعلقة بنفسيّة الطفل، المنهج أساسا موجود لدينا في القرآن الكريم والسنّة النبويّة المطهرة، وإذا رجعنا إلى الأصل نستطيع حل كل مشاكلنا.

د. طه جابر: هل خلاصة الفكرة تعتبرها تلك التي عبرت عنه الأخت؟

س: تقريبًا؛ الخطورة أن مَا نراه جيدًا الآن في الغرب، الخطر أنّه هُوَ أصلا مبنيّ على فكر وفلسفة غريبة عنا.

د. طه جابر: لقد شعرت أنّنا نحن الثلاثّة، أنت والأخت وأنا متفقون فيما يلي: القضيّة الأولى: اتخاذ الكتاب والسنّة منطلقًا في تصوراتنا وفي معالجتنا لقضايا العلوم النفسيّة والاجتماعيّة ولنا منظورنا. أظن هذا موضوع اتفاق.

القضيّة الثانية: النظر في تراثنا.

القضيّة الثالثة: النظر في هذه الحضارة وفيما أفرزته وفي فكرها ومناهجها نظرة الناقد البصير ومحاكمتها إلى الكتاب والسنّة لا أن نحتكم إليها.

القضيّة الرابعة: وهي قضيّة المنهج الَّذِي عرضناه، المنهج الَّذِي عرضناه هُوَ أن ننظر إلى مصادر المعرفة ونعيد النظر لها. الغرب يعتبر مصدر المعرفة الوجود وحده والحس والتجربة. أنا أعتبر مصادر المعرفة الوحي بشقيه الكتاب الكريم والسنّة النبويّة المطهرة والوجود كذلك بالعقل بالحس بالتجربة.. فأين موضع اتفاقي مع المنهج الغربيّ؟ أنا لم أتفق معه في أيّ شيء من الأشياء. أنا أتفقت فقط في شيء واحد وهو أن التراث الَّذِي أراه حولي، هذا تراث إنسانيّ، الغربيّ أسهم فيه والمسلم وغيره. أنا عليّ أن أنظر فيه نظره الناقد البصير وأحاكمه إلى الكتاب الكريم والسنّة النبويّة المطهرة. فالإمام ابن تيمية عليه رحمه الله تعالى حينما جاء إلى المنطق الأرسطيّ –على سبيل المثال– درسه وفحصه ثم نقده وكتب فيه كتابين كتابًا اسمه «**نقض المنطق**» وكتابًا اسمه «**الرد على المنطقيّين**» ثم عرض رحمه الله تعالى إلى كثير من قضايا المنهج في كثير من كتبه المختلفة، فهل تعني: إنّني يجب أن أرفض هذا كلّه ولا أنظر فيه ولا أفكر في معرفة مَا قد يكون فيه من إيجابيّات؟

س: آتي بمثال: الفلسفة لما وصلت إلى المسلمين نشأ علم الكلام ونشأت الفرق ونشأت (اللخبطة) التي لن نتعداها في العقائد؛ لماذا؟ لأنّ الناس الذين أحضروا الفلسفة اعتقدوا أن هذا جيد من الحضارة، هذا جزء طيب من الحضارة الأخرى اعتقدوا أنّهم بذلوا جهدًا واشتغلوا فأخذوا الجيد من الحضارات الأخرى، هذا جيد أنظر ماذا نتج عنه. الفرق وغيرها. مَا الضمان لك أنت وأنا وبعد ألفي سنة نضع الأمّة في مشكلات جديدة. مَا الضمان؟

د. طه جابر: الضمان هُوَ التحاكم إلى الكتاب الكريم والسنّة النبويّة المطهرة باستمرار.

س: الذين جاءوا بالفلسفة من المجتمعات الأخرى –والله تبارك وتعالى أعلى وأعلم– البعض لا شك فيهم كانت نواياهم صادقة واحتكموا إلى الكتاب الكريم والسنّة النبويّة المطهرة واجتهدوا وأخطأوا.

د. طه جابر: أنا أولا أصحح لك قضيّة أنّهم أخذوا من الفلسفة مَا اعتقدوه. أبدًا، الفلسفة يا أخي لها قصة ودخولها إلى عقولنا له قصة أخرى تستطيع أن تطلع عليها في مراجعها. والفلسفة هذه – المأمون – إن حسنت النوايا – كان قد حرص وأيضًا لقضيّة تحتاج إلى تفسير، قضيّة من

قضايا الفكر، الرجل الَّذِي كان يتبنى مذهب الاعتزال وله موقف يمثل مَا يسمى بالعقلانيّة أو مَا يقابل العقلانيّة الآن، وأراد أن ينتصر في معركته على أهل الحديث وأهل النص، وبلغه أن في التراث اليوناني أشياء إذا ترجمت وشاعت مفاهيمها بين المسلمين سيجعل لمذهبه ولآراء جماعته قبولا، فعهد بالترجمة – لم يكن هناك للأسف الشديد مترجمون مسلمون – وفي السنّة النبويّة أن الرسول –صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ– من أوائل مَا بدأ به بدأ يصطنع المترجمين من أصحابه، جاء زيدا وطلب منه أن يتعلم السريانية، وطلب من آخرين أن يتعلموا العبريّة، وكان يدعو لهم أن ييسر الله –تبارك وتعالى– لهم ويسهل عليهم. المأمون عهد بالترجمة إلى اليهود والنصارى، مَا كان هناك أي مترجم إلا يهوديّ أو نصرانيّ في عهد المأمون، جماعة إسحاق بن ميمون وغيره من اليهود والنصارى والصابئة، هؤلاء الذين كانوا يتقنون اللغات الأخرى اليونانيّة والسريانيّة، فترجموا أسوأ مَا في التراث اليوناني وغيره، وترجموا له القضايا التي تتعلق بمشكلات العقول (التعبانة) التي لم تهتد بهداية الوحي على الإطلاق وترجموا له قضايا أخرى.. هناك قصة طريفة، يقولون: إنّه كان هناك دير أو مكان للرهبان قد وضعوا فيه مجموعة من الكتب لأنها تهدم المسيحيّة وكذا لأنها كتب فلسفيّة (وطينوها) اقفلوا عليها نهائيّا. وقيل: جماعة إسحاق بن ميمون هدموا هذا البناء، وأخرجوا هذه الكتب التي كانت المسيحيّة تهابها وترجموها إلى التراث الإسلاميّ. مَا كانت العمليّة عمليّة انتقاء. وإنّما كانت عمليّة ترجمة للأسف الشديد غير منضبطة بضوابط، كان لها أسوأ الآثار، ودخلت جزءًا في عمليّة الصراع السياسيّ والصراع الاجتماعيّ الدائر في تلك الفترة، هِيَ غير مَا نحن فيه على الإطلاق.

أمّا ما نحن فيه، نحن أولا نجعل الكتاب الكريم والسنّة النبويّة المطهرة هِيَ الثوابت والأصول، هِيَ المراجع التي نريد أن نستمد منها فكرنا وثقافتنا ونجعلها مرجعنا في كل شيء. نرجع إلى تراثنا الإسلاميّ ونراجعه، مَا انسجم منه مع توجيهات الكتاب الكريم والسنّة النبويّة المطهرة ومناهجنا أخذ منه، مَا صادم شيئًا من ذلك أهمل. كذلك نرجع إلى هذا التراث المعاصر بقطع النظر غربيّ أو شرقيّ.. لا نسأل في ماهيته، لأنّ عندنا النور **[قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ]** (المائدة:١٥) فأنا أصلا أريد أن أنسى أهو غربيّ أو شرقيّ أو سواه لأنّني لن أتعامل معه من هذا المنظور، أنا سأتعامل مع الموجود الفكريّ والحضاريّ والثقافيّ من نظرة الإنسان المتعالي الَّذِي له مراجعه ومصادر

هدايته ويحاكم كل شيء إليها، وبالتالي فإنه لدى الحماية الكافية وعندي الأمن الكافي، الَّذِي يحميني من أيّ انحراف أو مَا يمكن أن يشكل خطرًا.

أمّا قضيّة سد الذرائع المتوقعة فأيضًا في العقل المسلم قضيّة الاحتياط والخوف لها مشكلة أخرى هِيَ مشكلة من مشاكلنا الفكريّة. عليّ إذا كان الشيء صحيحًا أو سليمًا أو مقبولا لا يعارض كتابًا ولا سنّة ولا يصطدم بأصل من أصول الإسلام عليّ أن أقبله. لماذا أخاف منه وافترض احتمالات قد تقع بعد مائة أو مائتين أو ثلاثمائة سنة؟ هذه الاحتمالات غير واردة، ونحن نأخذ سد الذرائع كدليل حينما يكون الشيء ذريعة إلى مفسدة متحققة، لكن حينما تكون المسألة مجرد فرض أو مجرد احتمال فالفرض والاحتمال لا يفترض علينا التخلي عن شيء سليم أو صحيح أو أكيد موجود.

أنا كنت أريد أن تكون أفكارنا واضحة، ليس هناك شيء اسمه التوفيق بين الحضارة الغربيّة أو الفكر الغربيّ والفكر الإسلاميّ، أو نهدم السور بين الثقافة الغربيّة والفكر الإسلاميّ -معاذ الله تبارك وتعالى- وإنّما مَا نحاوله هُوَ كما قلت معتمد على الكتاب الكريم والسنّة النبويّة المطهرة وتصنيفهما وإعادة قراءة كل منهما لمعرفة توجيهاتهما في هذه المجالات وهذه القضايا. دراسة تراثنا كلّه بفرقه، بكل مَا فيه، الدراسة الناقدة المحاكمة إلى كتاب الله -تبارك وتعالى- وسنة رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ، ودراسة التراث الإنسانيّ، استخلاص منهج للتعامل مع قضايا الحضارة والثقافة نستند فيه إلى كتاب الله -تبارك وتعالى- وسنة رسوله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وآله وَسَلَّمَ-، بهذا الشكل أظن هذا منهجًا إسلاميًّا مَا أشعر أن فيه أي تناقض مع الإسلام في شيء.